طاهر البهي

علاقات مثيرة ونهايات غامضة

الفنانون والمخابرات!




تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

الفنانون والمخابرات

علاقات مثيرة ونهايات غامضة

تأليف طاهر البهي





الفنانون والمخابرات

المؤلف: طاهر البهي

لوحة الغلاف: الفنان / عمرو سليم

التنسيق الداخلي : رفعت حسن سيد سالم

التجهيزات والكمبيوتر:

دار العلوم للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ مصر

رقم الإيداع:

2005/14907

I.S.B.N

9

٢٠٠٥م

43 ب شارع رمسيس ـ أمام جمعية الشبان المسلمين ـ

الدور السادس ـ شقة 71 – معروف

المراسلات:

ص ب: 202 محمد فريد 11518 القاهرة

هاتف: ٥٧٦١٤٠٠(٢٠٢) وفاكس: ٥٧٩٩٩٠٧(٢٠٢)

إدارة المبيعات: 0127221936-0124068553

البريد الإلكتروني :

daralaloom2002@yahoo.com
daralaloom@hotmail.com

الإهداء

إلى ابنتيَّ..

سلمى وشروق..

الأمل والمعنى الذي أستمد منه طاقة (نور) لعله يرفعني إلى الأمام ولو خطوة في طريق قلَّ مَن يحمل فيه القناديل.

طاهر البهي




تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفنان بتكوينه وبطبيعته يسعى دائمًا إلى القمة، والقمة في الفن - كما في الحياة - هي قمة معنوية ليس لها آخر، فكلما صعد إلى درجة، أدرك أن هناك درجة أعلى لم يصل إليها.

ولذلك فالفنان في حالة سعي دائم، وسفر، وبحث عن المجهول.. وهو يظل كذلك حتى يتوقف بفعل الزمن، أو يسقط.. بفعل فاعل!!

وعندما تتداخل دائرة الفن مع دوائر السياسة والسلطة، يكون الطموح هو مركز إحدى هذه الدوائر، ولكن للأسف فإن النتيجة التي نراها من هذا التداخل، هي (احتراق) الفنان بفعل لهيب السياسة، فلا هو نجح في تحقيق طموحه في الشهرة والنجومية، ولا هو تخلص من السهام الطائشة التي تصوب إليه كلما دار حديث في الفن أو في السياسة!

وبعض أبطال حكايات هذا الكتاب من الفنانين والفنانات، اقتربوا من السلطة، فاكتووا بنيرانها؛ إما لأنهم لم يدركوا حجم المخاطرة التي أقبلوا عليها، وإما لأن روح المغامرة قادتهم إلى بلاط السلطة فجرفتهم بعيداً عن فنهم وجمهورهم، ولو لفترة، كما في بعض الحالات.

ونخلص إلى أن الفنان (فنان) يعبر عن آمال وأحلام جمهوره، وإن اضطر للتعبير عن أفكار السلطة، فإن ذلك يجب أن يكون وفق ما ارتضاه الشعب.. كل الشعب، والخطر - كل الخطر - أن يلعب الفنان مع السلطة.. مع الكبار! وعالم المخابرات مليء بالأسرار والحكايات التي تفوق الأساطير رغم أن ما وصلنا منها ليس إلا أقل القليل مما سمحت به الظروف أو الصدف، ومع الأسف، فإن بعض الفنانين تم تجنيدهم تحت إغراءات معينة معظمها تدور حول مزيد من الشهرة والنجومية، أو بعد النفاذ إليهم من نقاط ضعف خاصة بهؤلاء الفنانين، والمؤسف أن أكثر هؤلاء كانوا من النساء المنتميات إلى الفن، ورغم عددهن القليل إلا أن حكاياتهن ذاعت وانتشرت. والواقع أن استخدام المرأة وتأثيراتها العاطفية على الرجل ليس بمستحدث في أعمال المخابرات والتجسس في جميع أنحاء العالم، منذ القدم وحتى التاريخ المعاصر.

ويعطى صلاح نصر رجل المخابرات المعروف مثلين لذلك: الأول عملية أطلقت عليها عملية لويس الرابع عشر - ملك فرنسا - وعشيقة شارل الثاني ملك إنجلترا، أما بطلة العملية فهي "لويز كوربالليى".

وتبدأ الحكاية عندما ظهرت "لويز" على مسرح الأحداث، واستخدمها لويس بإرسالها إلى شارل، الذي كان يعانى من إفلاس خزينته، وعندما وصلت "لويز" إلى سرير ملك إنجلترا، أقنعته في اللحظة نفسها بالتوقيع على معاهدة "دوفر" السرية التي تنص على انسحابه من الحلف الثلاثى ضد فرنسا، وكان ذلك مقابل ثلاثة ملايين من الفرنكات تنقذه من الإفلاس و.. بضع قبلات وأحضان دافئة يقاوم بها برودة خوائه العاطفي!

المثل الثاني الذي يذكره صلاح نصر لاستخدام العواطف في أعمال المخابرات، هو مثل من مصر، وبطل هذه الواقعة هو ضابط المخابرات البريطاني الشهير "لورنس العرب"، الذي جاء إلى مصر والتقى بالعميلة "مرجريت داندريان"، ونجح في تجنيدها أثناء حفل أقيم في فندق شبرد (القديم)، وكانت مرجريت من النشاط بحيث نجحت في اختراق عدد من الأسماء في مصر، مستغلة أنوثتها الطاغية، وخلاعتها المتعمدة، وأحضانها المعروضة للبيع بدون مقابل - ظاهرياً - غير الثرثرة في التفاصيل الدقيقة المسلوبة من أفواه مصادرها، بنعومة تشبه نعومة يد السارق الذي يسلبك أموالك دون أن تشعر بوجوده أصلاً.

وعن طريق الأخبار الخطيرة التي جمعتها الجاسوسة الحسناء المثيرة، هاجم البريطانيون - إبان احتلالهم المشئوم لمصر - فيلاً في أطراف مدينة بورسعيد المصرية، عثروا فيها على مستودع ضخم للأسلحة والوثائق الخاصة بمنطقة سرية مصرية، كانت قد أعدت خطة سرية لسد قناة السويس في نقاط إستراتيجية.. وأجهض هذا الحادث آمال الوطنيين المصريين في فترة ساخنة من المواجهة مع الاحتلال البريطاني، لعب فيه سلاح الأنثى دوراً كبيراً!

ولذلك تأتي هذه العبارة "الصدمة" على لسان صلاح نصر.. الرجل الذي أسس جهاز المخابرات العامة في مصر، وقاده في فترة من أشد الفترات سخونة، وهي الفترة التي لاقت بعد ذلك ما لاقت من هجوم وانتقاد عنيف ومحاكمة لعلها مازالت قائمة حتى الآن..

يقول صلاح نصر في كتاب عبد الله إمام "الثورة.. المخابرات.. النكسة" (دار الخيال):

"نجحت بعض النساء العميلات لنا في الكشف عن قضايا تخابر لم يكن في استطاعة الرجال أن يصلوا إليها".

إن هذه الجملة - على قصرها وقلة عدد كلماتها - تحمل تكثيفاً لكثير من المعاني، واختزالاً لعشرات الأسئلة: لماذا المرأة دون الرجل؟ ما هي نوعية هؤلاء النسوة؟ ما هي

صفاتهن؟ ما هي نوع القضايا التي نجحن فيها وتفوقن فيها على الرجال؟ ثم – ولعله الأهم – ماذا قدّمن في سبيل إنجاح أعمالهن المثيرة؟ وأيضًا ماذا أخذن؟!!

***

إن المرأة التي خُلقت رقيقة، ضعيفة – فيما يبدو – تحمل سلاحًا فتاكًا، تشهره متى أرادت، وكيفما شاءت، فبعضهن يستخدمنه احتواءً للزوج – وهو حق مشروع على أية حال – في حين أن الأخريات استخدمنه في الحصول على مكاسب من مال أو سلطة، وبطريقة غير مشروعة بالطبع، وهن مسئولات عن الاستخدام الخاطئ لهذا السلاح الفتّاك – العواطف – ولا يلومُنّ إلا أنفسهنّ – إذا ما صدّقنا شهادة صلاح نصر على هؤلاء النسوة، فهو يقول بالنص "ونحن لا نرغم النساء على أي شيء مهما كانت النتائج"!

إذا كان هذا هو الحكم على النساء العاديات، نقصد غير المشهورات، اللاتي لا يمتهنّ مهنة يتربحن منها، وليست لديهن موهبة ما يقضين الوقت في إشباعها، وأيضًا تدر عليهن مالاً ينفقن منه على احتياجاتهن المختلفة، فما بال الأمر بالنسبة لفنانات معروفات كنّ ملء السمع والبصر، تتهافت عليهن العدسات وفلاشات التصوير.. ما الذي جعل أقدامهن تنزلق إلى الهاوية.. هاوية الأعمال الخطرة التي تتطلب منهن تضحيات ليست بالقليلة، ولا بالهيّنة؟

هل أردن بذلك الانشغال في أعمال مثيرة، دفعهن إلى ذلك أن حياتهن قائمة – أساسًا – على الإثارة المستمرة؟

أم أردن الحصول على مزيد من المال، رغم أن للمال طرقًا أخرى أكثر أمنًا وهنّ أدرى بها؟

أم أردن "سُلطة"، أو بالأحرى التقرب من السلطة، وبالتالي إتاحة الفرصة أمامهن للقيام بأعمال الوساطة، و"التخليصات" والسمرة؟ أم أن أحدًا قد دفعهنّ – عامدًا متعمدًا – إلى الهاوية؟!

إن صلاح نصر رجل المخابرات المتهم باستخدام الفنانات في أعمال المخابرات "ضمن استخدامه النساء بصفة عامة" عندما سُئل:

ـ هل استخدمتم الفنانات؟ فإنه يردّ بلا تردد:

ـ عدد محدود.. لا يكاد يُعدّ على أصابع اليد!!

وحسنًا قال إن عددهن محدود؛ فالغالبية العظمى من الفنانين والفنانات المصريين يربأون بأنفسهم عن الأعمال البعيدة عن تخصصهم ومواهبهم التي منحها الله لهم لإسعاد الناس وتوعيتهم، عن طريق الرسالة التي يحملونها في أعناقهم.. ولكن تعالوا نقرأ إجابات صلاح نصر عن أسئلة عبد الله إمام:

* هل كان ذلك بالضغط عليهنّ؟

- اللاتي تعاونّ معنا من الفنانات، رحّبن فوراً بالعمل معنا، ولكل واحدة منهن (ملف) موقّع بإمضائها برغبتها، وكل واحدة من اللاتي تعاونّ معنا حصلت على أجر كامل عما قامت به. (إذًا، فالمال كان جزءاً مهمًا في هذا العمل!).

وبعض اللاتي يتشدقن الآن بالعفة، كانت تأخذ أجرها عن كل عملية تقوم بها!!

وفي موضع آخر يقول صلاح نصر: إن العلاقة بين رجل المخابرات والعميل هي علاقة سيد ومسود؛ الأول يدفع ويأمر، والثاني يأخذ وينفِّذ.

هذا عن المال، فهل هناك شيء آخر؟

يقول صلاح نصر في معرض حديثه عمّا يسمى بأعمال السيطرة على العميل بصفة عامة:

لأن المرأة أكثر تقلبًا من الرجل، كان تصويرها ضروريًّا للسيطرة عليها عند اللزوم.

فهل تم استخدام هذا النوع من أعمال السيطرة (التصوير في أوضاع مخلّة) مع فنانات؟ هل كنّ يقمن بأعمال من هذا النوع المتدني؟

الأوراق "الجادة" في هذا الموضوع – وهي قليلة – لا تؤكد ولا تنفي، رغم وجود العديد من الأوراق الصفراء التي تذكر تفاصيل مهينة في هذا الإطار، مع تأكيدنا الشديد على أن عدد الفنانات اللاتي استُخدمن في أعمال المخابرات عددهن قليل ولا يكاد يُعَدّ على أصابع اليد (كما اعترف مدير جهازَ المخابرات صلاح نصر بنفسه).

***

وإذا كان الأمر كذلك بعد إنشاء جهاز المخابرات العامة في مصر، فإن استخدام الفنانات لم يكن شيئًا من اختراع الجهاز ولا من متطلبات تلك المرحلة؛ فقد سبق ذلك حكايتان لفنانتين مشهورتين: الأولى هي "ليليان ليفي كوهين"، التي اشتهرت في مصر باسم "كاميليا"، وقصة علاقتها بالملك فاروق الأول ملك مصر، الذي يمثل السلطة في أعلى مستوياتها وقتها، وكذلك ما قيل عن تورطها مع نجمة الألغاز الأميرة "أسمهان" – آمال الأطرش – التي جذبها ضوء السلطة فحامت من حوله كفراشة ملونة، هائمة، حتى احترقت من شدة الاقتراب، واختلف الناس في حل لغز وفاتها المفاجئ – في حادث سيارة – هل هي منافستها "أم كلثوم"، أم هو الملك فاروق نفسه انتقامًا من ترديدها لفضائح أمه الملكة نازلي، أم هو طليقها الأمير الدرزى، أم الإنجليز، أم الفرنسيون؟ في حين أشار البعض إلى الألمان بأصابع الاتهام.. كل هؤلاء تَفرّق بينهم دم أسمهان.. الأميرة المغامرة، التي كان ينتظرها في الفن مستقبل رحب، وراحت تجرى وراء أوهام السلطة وجو المخابرات المثير، فانتهت هذه النهاية المأساوية السريعة دون أن يطول استمتاعها باللعبة الخطرة.

***

مع ملاحظة أن الفنان (الرجل) لم يكن بعيداً عن لعبة السلطة والمخابرات!

وفي السينما العالمية كانت ملكة الإغراء المتوَّجة "مارلين مونرو" نموذجًا مجسداً لاحتراق الفنان عندما يتخطى الخطوط الحمراء، إن مارلين كانت قد وضعت نهايتها بنفسها عندما أخرجت ذات يوم مفكرتها الحمراء وبها مجموعة من الأسرار الدقيقة التي سجلتها بعد لقاءات متعددة لها مع الرئيس الأمريكي جون كيندي وشقيقه المدعي العام قائلة: إنها ستدعو إلى مؤتمر صحفي عالمي تعلن فيه هذه الأسرار، قائلة في تحدٍّ: إن لديها الكثير لتقوله!

ثم ما حدث لها بعد ذلك من موت مفاجئ دراماتيكى، سبقه مراقبة دقيقة ومحكمة خشية أن تقوم على إفشاء هذه الأسرار الدقيقة.. فهل هناك ربط بين كل تلك الأحداث؟

* * *

وفي مصر..

ما قصة السيدة "نون"، وهي سيدة من الوسط الفني اشتهرت بارتباط اسمها باسم شخصية سياسية قيادية كبيرة؟ وكيف قيل إنها وقَّعت إقراراً بنفسها – على نفسها – عام ١٩٦٠ لتصبح مندوبة للمخابرات، حتى قيل إنها اشتهرت بذلك في الوسط الفني، وانتهى بها الأمر إلى الزواج العرفي من الشخصية السياسية، وهي نتيجة لم تصل إليها فنانة أخرى فيما يبدو.

* * *

ولكن يبقى هناك من الفنانين من جاءتهم الفرصة، إلا أنهم لفظوها، البعض رفضها لأن العرض كان ضد مبادئه وضد الأخلاق المهنية؛ كحالة الفنان الكبير يوسف وهبي الذي طاردته المافيا الإيطالية، ورفضها البعض الآخر إيمانًا منه بقوميته وبمصريته ووطنيته؛ كما في حالة الفنان سمير الإسكندراني الذي ظنت فيه "الموساد" صيداً سهلاً، وحاولت تجنيده أثناء إقامته في إيطاليا، فكشفهم ولطمهم لطمة شديدة أضيفت إلى صفعات سابقة ولاحقة.

وهذا الكتاب ليس موضوعه البحث في ملفات المخابرات، وإن كان يتعرض لذلك في جزء منه، وإنما هدفه البحث في علاقات الفنانين بالسلطة التي يبدو أنها كانت حلمًا وغاية لدى عدد كبير منهم؛ باعتبارها جزءاً من "الهالة" التي يحب النجوم – في الغالب – أن يحيطوا أنفسهم بها، ووسيلة لاكتساب بعض النفوذ تفيد بعضهم بالطبع في فرض سطوتهم ونجوميتهم على الوسطين الفني والاجتماعي.

ولعل ما سبق هو الذي أوقع بعدد من مشاهير الفن في شباك المخابرات، ولم يكن صعبًا تجنيدهم، أو تجنيدهن، للقيام بأعمال جمع المعلومات بأية وسيلة!

صحيح أن هذه المعلومات كانت تقدّم لمصلحة أمن الدولة في بعض الحالات، وصحيح أن جهاز المخابرات العامة المصري - على سبيل المثال - كان يسعى للاستفادة من كثير من هذه المهام، وقام - بناءً على جزء منها - بأعمال بطولية أذهلت العالم، ولكن الصحيح أيضًا أن الفنان كان يلعب في غير ملعبه، وأنه استُخدم استخدامًا ينافي طبيعة الخدمة التي يقدمها للناس، وبعيد كل البعد عن جو الا بداع الفني الذي تقدّم إلى الناس من خلاله بأوراق اعتماده.

ولا يستطيع أحد أن ينكر مثل هذه المشاركات، فقد اعترف بها كل أطرافها، لدرجة أن المهندس حلمي السعيد، وهو الرجل الذي كان مستشارا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر في الاقتصاد والتخطيط وقبلها أحد ضباط يوليو الأحرار (١٩٥٢) والذي أوكل إليه جمال عبد الناصر بالتحقيق في القضية التي اصطلح على تسميتها انحراف جهاز المخابرات العامة" التي كان على رأسها مؤسس الجهاز صلاح نصر، لقد ذكر الرجل في مذكراته أنه تم استدعاء (٤٤) سيدة وفنانة في التحقيق الذي بدأ في الساعة الثامنة مساء يوم (٢٨) أغسطس عام ١٩٦٧ وانتهي في الساعة الحادثة عشرة من مساء يوم ١٤ أكتوبر من العام نفسه.

ونحن نعترف بأننا ليس بإمكاننا أن نحصى (كل) الحالات التي تعامل فيها الفنانون مع أجهزة المخابرات، ففي كل يوم تتكشف لنا فصول جديدة في هذا السياق يكشف عنها الستار للمرة الأولى، ولعل قنبلة الأيام القادمة ستبرز في كشف بعض الفنانين عن حكاياتهم المثيرة مع المخابرات (السلطة) وكيفية لعبهم مع الكبار، وقد كشف مؤخراً فنان لعب أدوار الفتى الأولى في عدة أفلام جميلة من زمن الأبيض والأسود، ولكنه في الوقت ذاته كان يلعب لعبة أشد خطراً وإثارة هي لعبة المخابرات. . الفنان هو إيهاب نافع الذي اعترف بلعبته المثيرة، وإن كان قد لعبها لمصلحة الوطن. . وسننتظر حتى يدلى الفنان إيهاب نافع بشهادته كاملة ثم يكون لنا بعدها حق التحليل والتعليق. . ومازلنا ننتظر أن يخرج الكثيرون عن صمتهم.

ودعونا نتعرف على الحكايات من أولها.

طاهر البهي
مدينة نصر
سبتمبر ٢٠٠٤

1

الفن في خدمة السلطة

(للحق فان الفن والفنان المصري قد لعبا دورًا إيجابيًا للغاية في خدمة القضايا الوطنية في مصر، ويشهد المراقبون المحايدون بأن هذا الدور الذي لعبه الفن والفنان كان بعيدًا عن أية متاجرة أو مزايدة ولا بهدف إلى التقريب من السلطة)

"مهما حاولنا أن نتخيل إلى أي مدى استفادت الثورة المصرية من الفن، فإننا لن نصل إلى تحديد درجة هذه الاستفادة بدقة! فالفنون على اختلاف أنواعها: سينما، مسرح، وغناءً، لعبت دورًا خطيرًا في الترويج لقيم ومبادئ الثورة الجديدة، وكانت الثورة من الذكاء بحيث عرفت حجم هذا التأثير من جانب الفن على الجماهير، فراحت تمدّ يدها لخلق نوع من التعاون المشترك – المثمر – بينها وبين أنواع الفنون المختلفة".

ففي الغناء كان صوت عبد الحليم حافظ، ذلك الموهوب العبقري، هو المتحدث الرسمي – أو كاد أن يكون – وبأفكار العباقرة: صلاح جاهين، وعبد الرحمن الأبنودي، وغيرهما، وألحان المبدعِين: كمال الطويل: والموجي: وبليغ حمدي، لدرجة أن حدَثًا خطيرًا وجليلاً مثل تأميم قناة السويس، تعيشه الأجيال الحالية بصوت "حليم"، وتتفاعل معه أكثر من تفاعلها به من خلال صفحات كتب التاريخ، أو بعبارة أخرى، إن صوت حليم وصل أسرع وأبسط من أصوات المؤرخين: "صرخة أطلقها جمال.. إحنا أممنا القنال".. فتهلل الناس فرحًا، وراحوا يغنون لزعيمهم خلف مطربهم: "ضربة كانت من معلم.. خلّت الاستعمار يسلِّم". ونلاحظ أنه إذا كان "حليم" هو نجم هذه المرحلة بغير منازع، فإن أستاذه محمد عبد الوهاب قد مجّد أشخاصًا أكثر من تمجيده لمرحلة بعينها، حتى إنه سُمّي "مطرب الأمراء والملوك"، وإن كان قد لعب الدور نفسه بعد الثورة. وقد فطنت الثورة – وخصوصًا زعيمها الحقيقي جمال عبد الناصر – إلى أهمية الدور الذي يلعبه فن الغناء، فتم – بشكل أو بآخر – تقوية صوت حليم ومساندته باعتباره هو نفسه يمثل نموذجًا لمن جاءت الثورة من أجله.. شاب فقير، ضعيف، لا سند له، لا يملك إلا موهبته، فكانت الثورة بديلاً عن الأب الذي فقده قبل أن يرى كلاهما الآخر. كما نعرف جميعًا الدور الذي لعبته السيدة أم كلثوم – كوكب الشرق – في دعم قضية بلدها أثناء "المجهود الحربي"، وكان ذلك أيضًا هو دعم للسلطة الوطنية الموجودة وقتها، ولقد قال لي السيد محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم، والذي لازمها كظلها طوال ربع قرن من مجدها: إن ناصر كان دائم التردد على أم كلثوم، وكان يأتنس بالحوار معها، كما أكد على العلاقة القوية بينهما.

وفي المسرح كان هناك مسرح المبدع الكبير الراحل سعد الدين وهبة، ونعمان عاشور، وتوفيق الحكيم، وألفريد فرج، ومعهم نجوم ونجمات المسرح المصري الذين ساهموا في تشكيل وعي الجمهور المصري في عهده الجديد، ونستطيع أن نؤكد أن الفنون قد استفادت بالقدر نفسه من الثورة، فأصبح هناك رعاية أكبر لها من قِبل الدولة ومؤسساتها، فنضجت الفنون وتألقت وأينعت، وأصبحت فنون الستينيات هي النموذج الذي نسعى لإحيائه محل معظم فنون التسعينيات التي اتسمت في معظمها بالتدني.

كما لم تكن السينما بعيدة عن التأثير والتأثر بالثورة، بل كان النموذج هنا أوضح، باعتبار السينما هي ذاكرة الأمة ومرآتها، وهي الأكثر مقدرة على التأثير في الشعوب، فحدث أن اهتمت الثورة بالسينما منذ اللحظات الأولى؛ ففي الثامن من شهر أغسطس عام ١٩٥٢، وبعد أيام من قيام الثورة المصرية، أصدر السيد محمد نجيب - المسئول الأول عن الثورة وقتها - بيانًا للسينمائيين كان عنوانه "الفن الذي نريده"، جاء فيه: "إن السينما وسيلة من وسائل التثقيف والترفيه، وعلينا أن ندرك ذلك؛ لأنه إذا ما أسيء استخدامها، فإننا سنهوي بأنفسنا إلى الحضيض، وندفع بالشباب إلى الهاوية".

وكان ذلك اعترافًا من الثورة بأهمية الفن (السينما) في الارتقاء بالشعب وخاصة الشباب منهم، ولذلك فقد كان هذا بمثابة إعلان رسمي باحتضان الثورة لفن السينما، حتى إنه جاء في البيان السابق الإشارة إليه صراحة أن: "السينما لها مكانتها عند النظام الجديد". وكان أيضًا انتظارًا وترقبًا لأن تعلن السينما ولاءها ودعمها للنظام إذا ما كانت تؤمن بمبادئه. ويبدو أن السينما قد استقبلت الرسالة بوعي وبفهم لطبيعة دورها، ففي ذكاء وسرعة شديدين، بدأ السينمائيون يتسابقون بالمشاركة في دعم وتأييد النظام الجديد وما يحمله من أفكار عن العدالة والحرية. ولذلك نجد اللواء محمد نجيب يسارع بإصدار بيان جديد في يناير من العام التالي مباشرة ١٩٥٣ - أي بعد خمسة أشهر من بيانه الأول - يقول فيه بالحرف الواحد: "لقد استيقظت المعاني في نفوس الفنانين، فأدركوا واجبهم، ووقفوا جميعًا في صفوف النهضة يساهمون في تشكيل البناء الجديد.. بناء النهضة".

وبالتالي لم يكن مستغربًا أن تشكل الثورة لجنة رأسها المرحوم وجيه أباظة، كانت مهمتها ترتيب لقاءات بالسينمائيين تمهيدًا لوضع تصور للدور الذي ستقوم به السينما المصرية. وللحق - فإن السينما المصرية وصُنّاعها - قد تسابقوا للوقوف إلى جانب العهد الجديد،

البعض عن إيمان واقتناع، والبعض الآخر لم يَخْلُ موقفه من شبهة مجاملة، وهو ما جعل ناقدًا محترمًا هو الراحل سامي السلاموني يكتب في نشرة نادي السينما (بتاريخ ١٩/ ١١/ ١٩٧٩) قائلاً: "إن موقف السينما المصرية من التاريخ موقف غير أخلاقى"! المهم أن الأفلام المهمة التي بدأت تسجل معارك الثورة مع قوى الخارج – ممثلة في الاستعمار – والداخل – ممثلة في بقايا الإقطاع والرجعية – ظهرت مبكرًا في فيلم مثل "بورسعيد" الذي جاء بتكليف خاص من الزعيم جمال عبد الناصر إلى "نجم السينما المحبوب" فريد شوقي – كما وصفه عبد الناصر – وبعد الانتهاء من تصوير الفيلم الذي نعرف جميعًا قصته وأحداثه، رأى فريد شوقي أن يبعث برسالة شخصية إلى جمال عبد الناصر قال فيها: "كان هناك دور ينتظر الفن، دور أكبر مما قام به خلال المعركة، وهو يسجل وحشية المستعمرين، وبربريتهم، وخِسّتهم، وفظائعهم، وقررتُ أن أنتزع للفن شرَف القيام بهذه المهمة الجليلة، فأنتجتُ فيلم بورسعيد الذي أقدمه اليوم مسجلاً فيه ما ارتكبته قوى البغي والعدوان من همجية وبربرية. وأخيرًا.. أرجو أن أكون قد أديتُ بهذا الفيلم ما ينبغي أن أقوم به كمواطن مصري يؤمن بالحرية. توقيع: فريد شوقي".

الجميل أن السلْطة بادلت فريد شوقي مشاعره، فكتب أنور السادات عضو مجلس الثورة كلمة طويلة يمتدح فيها الفيلم، جاء في آخرها:

"هذا هو فيلم بورسعيد الذي ستلمسون فيه الوطنية والإباء والتضحية والفداء".

وكانت هذه بدايات علاقة متينة بين أنور السادات وفريد شوقي، استمرت حتى أصبح السادات (رئيسًا) لجمهورية مصر العربية، في حين أصبح فريد (ملِكًا) للشاشة، فحرص السادات على تكريم فريد في أحد أعياد الفن، ولعل البعض لا يزال يتذكر كلمة السادات له يومها: "أبكيتنا يا فريد" كان يقصد دوره في فيلم "لا تبكي يا حبيب العمر"، وهو ما يؤكد استمرار العلاقة بين الفن والسلطة، وإن كان معروفًا عن الرئيس السادات أنه كاد أن يصبح ممثلاً بعد أن تقدم بالفعل لإحدى المسابقات الفنية.

وفي العام نفسه كان هناك فيلم آخر شهير جدًّا هو "رُدّ قلبي"، الذي جمع بين أربعة ضباط هم: المؤلف يوسف السباعى، والمخرج عز الدين ذو الفقار، واثنين من أبطاله هما: الفنان أحمد مظهر ضابط سلاح الفرسان، والفنان صلاح ذو الفقار ضابط البوليس الذي قال لي في صيف عام ١٩٨٨: إنه لم يخطر بباله التمثيل لولا شقيقه عز الدين ذو الفقار الذي طالبه بالاستقالة من البوليس والعمل بالسينما، رغم أن صلاح كان معلمًا في أكاديمية الشرطة، وكرر لي إنه يعتزّ كثيرًا بهذا الفيلم، في حين أكد لي الفارس أحمد مظهر المعنى نفسه.

وكـم كـان الفـنان المتميـز كمال يس مؤثرًا عندما قال عبارته الشهيرة في الفيلم: ("إنجي بتاعتـي تعـباني يـا عـلي")، وطبعًا الكل يعرف أن "إنجي" التي يقصدها كمال يس الذي كان بـدوره يمـثل شخـصية الـرئيس جمـال عـبد الـناصر، إنجـي التي يخصّها بحبه وقلقه وسهره لتخليصها من مغتصبيها، هي.. مصر.

وكـم أشـعلت مـثل هـذه المـشاهد روح الوطنية في قلوب الشباب المصري، وألهبت نار الحـماس والغـيرة عـلى البلد وشعبه، وكم تأثر المشاهدون بأفكار الحرية والعدالة والوطنية في أفـلام مثل "في بيتنا رجل"، "غروب وشروق"، بل وحتى في أفلام حملت الطابع الغنائي مثل "ألمـظ وعـبده الحامـولي"، الـذي كـشف عن بعض مفاسد النظام البائد، وغيرها من الأفلام المهمة التي تعدّ علاماتٍ في تاريخ السينما والوطنية المصرية في آنٍ واحد.. وبعد ذلك لا تسأل: إلى أي مـدى اسـتفادت الـثورة أو الـسلطة من الفن؟ ولا ما الذي استفادة الفن من السلطة؟ فـالفن محتاج دائمًا إلى سلطة واعية تدعمه، وقوية تسانده، دون أن تخشى على نفسها من اقتلاع الفن لها إذا كانت جذورها غير ممتدة في قلب شعوبها.

والفـن قـادر عـلى ذلـك. وللحق فإن الفن والفنان المصري قد لعبا دورًا إيجابيًّا للغاية في خدمـة القـضايا الوطنـية في مصر، ويشهد المراقبون المحايدون بأن هذا الدور الذي لعبه الفن والفنان كان بعيدًا عن أية متاجرة أو مزايدة، وليس بهدف التقرب للسلطة.

***

ولعـل أوضـح مـثال على كلامنا هذا الفيلم الجميل الذي يحمل عنوان "أيام السادات"، الـذي خرج علينا به صنّاعه وعلى رأسهم الفنان الجميل "أحمد زكي"، الذي استطاع أن يضع اسـمه في مقدمة مَن لعبوا الأدوار التاريخية منذ جسد شخصية عميد الأدب العربي الثائر "طه حـسين" في المسلسل التليفزيوني الذي حمل عنوان السيرة الذاتية لمفكرنا الراحل "الأيام"، ثم أكـد الفـنان المبدع أحمد زكي على مقدرته في استحضار روح الشخصية عندما فاجأنا بتحضير روح الـزعيم الـراحل "جمال عبد الناصر" في السيناريو المحكَم الذي كتبه السيناريست المبدع محفـوظ عـبد الـرحمن وبـتفوق على النفس، كانت مفاجأة "زكي" بهذا الفيلم المشار إليه "أيام الـسادات"، الـذي أعـاد السادات "حيًّا" على الشاشة لمدة تزيد على الساعات الثلاث. ومهما اخـتلف الـبعض، أو خالفـوا شبه الإجماع، على جمال وفائدة الفيلم – وهو ليس مجالنا – لكن يبقـى السؤال الذي يقترب من موضوع هذا الكتاب: ماذا استفاد أحمد زكي – كإنسان وليس كفنان – من تقديم فيلمين عن زعيمين راحلين؟

بالطبع فإنه لم يستفد شيئًا؛ لأنه لم يتقرب من سلطة، ولم يستفد من سلطان؛ لأن العصرين انتهيا تقريبًا ولم يعد أصحابهما يملكان أن يمنحا أو يمنعا. إذًا فهذا هو دور الفنان الحقيقي والفن الحقيقي، يقدم شهادته على التاريخ وعلى الأحداث، متجردة من أية حسابات إلا حساب الضمير.

وفي هذا السياق فإننا نقدّر ونحترم بشدة هذا التكريم رفيع المستوى الذي منحته – السلطة – ممثلة في أعلى مستوياتها، عندما أمر الرئيس حسني مبارك بتكريم أسرة فيلم "أيام السادات"، بل وقلّد بنفسه صنّاع الفيلم الأوسمة من أرفع الدرجات. ولم تكن "السلطة" في حاجة إلى ردّ الجميل للفن – ممثّلاً في هذا الفيلم السينمائي – ولكنها انتبهت – وهذا شيء جميل للغاية – إلى تعبير الفن بهذا المستوى الراقي والإنتاج السخي، لفترة ما من تاريخها، ورمز من رموزها، مهما اختلفت حولها الآراء، أو تضاربت الشهادات، فاستحق صنّاعه التكريم المناسب.

***

إذا كان ما سبق يدخل في نطاق العمل المشروع للفن والفنان، إلا أن هناك - مع الأسى والأسف – أدوارًا غير مشروعة، اختلط فيها الأمر على "الفنان"، ليس في مصر وحدها، بل في هوليوود أيضًا؛ فلم يقنع بعض الفنانين والفنانات من هنا وهناك بالقدْر الذي حققوه من الشهرة، فراحوا يبحثون عن "النفوذ"، في حين سعى بعضهم إلى "الإثارة"، فراحوا يحومون كفراشات ملونة حول "السلطة"، ولم يتبينوا – لفرط سذاجتهم – الفارق بين الضوء الأخضر الذي يسمح لهم بالعبور و"النفاذ"، والضوء الأحمر الذي يحذر من الاقتراب ويعلنها منطقة "نفوذ"! تصوَّر بعض الفنانين – ومن حسن الحظ أن عددهم كان قليلاً – أنهم يستطيعون "اللعب مع الكبار"، مع السلطة، بل إن بعضهم كان أكثر تهورًا فحاول اللعب مع سلطة من نوع أخطر مثل عصابات المافيا، كما في حالة المطرب والسينمائي الأمريكي الشهير "فرانك سيناترا"، أما "مارلين مونرو" نجمة الإغراء اللعوب، التي ظنت أنها ما دامت تستطيع رفع ذيل فستانها بسهولة ودون خجل ليلتقط المصورون صورًا تذكارية لملابسها الداخلية، ظنت واهمة أنها تستطيع بالسهولة نفسها أن تهدد الكبار جدًّا، وأن تفضح بلدًا بحكامها!

وفي مصر حاول البعض اللعب مع الكبار تقليدًا لنجوم هوليوود الكبار، أو محاولة للانغماس في "لعبة".. والفن لعبة جميلة وهادفة، أو خلقًا للإثارة والمتعة، أو طلبًا لشهرة أو نفوذ..

أصارحكم.. إنني في أثناء بحثي عن المادة الرئيسية لهذا الكتاب، كنت أتوقف طويلاً قبل تحليل كل شخصية.. كنت أحاول التعاطف مع بطل كل حكاية من فصول هذا الكتاب.. كنت أشفق على بعضهم.. نعم.. كان هذا يحدث.

كنت أتوتر وأنا أسرد سطور كل فصل في هذا الكتاب، وكأنني أكتب سيناريو فيلم سيخرجه من جديد نجم الإثارة الأول "ألفريد هيتشكوك"، كان يحدث هذا وربما أكثر.

ولكن "التعاطف" لم يكن يأتيني في معظم هذه الحالات.

كيف أتعاطف مع ممثلة – أو ممثل – مطربة – أو مطرب – يتمتعون جميعًا بالوسامة، وبقدر لا بأس به من الشهرة، كانت تزيد مع الأيام بدون شك، خاصة مع توافر الموهبة؟

كيف أتعاطف، وبالتالي أدعو قارئي الصديق لأن يشاركني التعاطف، مع هذا الفنان وتلك الفنانة التي راحت تخلع نعليها وتملؤهما بالتراب ثم تنهال به على تاريخها، وربما – عفوًا كل العفو – على جمهورها الذي صدَّقها ومنحها تاج النجومية؟!

تترك بإرادتها هذا الفن الجميل الذي يمكن أن تغير به خريطة العالم، وتترك مواهبها التي حباها بها الخالق، وتذهب إلى أقرب سرير – عفوًا مرة أخرى – وتلقي بجسدها عليه عارية الملابس والأخلاق، لترتمي تحت أقدام مسئول طلبًا لنفوذ أو تبركًا بسلطان.

ولا نتخيل – في هذا السياق – ما قيل عن عمل بعض الفنانات مع جهات أمنية – مثل المخابرات في فترة من الفترات – في مهمة جمع المعلومات، وبوسائل لا تليق بفنانة أو غير فنانة، ما دامت تحترم نفسها وجسدها.

في الحالات السابقة كلها يكون الخاسر هو الفنان الذي يبغي دورًا غير دوره، وعملاً يخاصم كرامة الفن، أما الفن فهو براء من مثل هؤلاء، وهم – بعددهم المحدود – لا يشكلون أي تهديد لسمعة الفن والفنان، فهم ليسوا أكثر من مشهد فاسد في فيلم ممتلئ بالأحداث الرائعة.

***

ولأن الفن براق، وكما أنه يجذب الفراشات الملونة فإنه يجذب إليه أيضًا الأنظار بقوة، مستمتعين بالنظر الدائم إليه وإلى فراشاته الجميلة، فإن هذه الفراشات الملونة أصبحت مادة للأحاديث والمسامرات والأخبار.. وهذه الأخبار إن لم تُوجد فإنها تُخلق خلقًا.. ولذلك لم تَسْلم العديد من الفراشات الملونة من الأخبار الكاذبة، والشائعات الظالمة، حتى نالت من كثير من الفراشات وكادت تمزق أجنحتها.

فمن بين الفنانات والفنانين الذين اقتربوا من وهج ونار السلطة من طالتهم الشائعات وتحدثت عن أشياء كثيرة – ربما لم تحدث – على أنها وقائع وأسرار وكواليس لا يأتيها الباطل أبدًا.

كما أن مِن بينها – الفراشات الملونة – مَن اقترب من السلطة فأفادها، كما في حالتي السينما المصرية وأفلام الثورة، وحالة الفنان العندليب عبد الحليم حافظ الذي يعدّ بحق أجمل أغنيات الثورة.

***

لعل الهدف من هذا الكتاب – والنتيجة في الوقت ذاته – هي بيان أن الفنان له مجال وله أدواته في التعبير عن قضايا وطنه، عن أحلام شعبه وهواجسهم أيضًا، فإذا كان ولا بد أن يقترب من السلطة – أي سلطة – عليه أن يكون حذرًا، فهذا ليس ملعبه، فإذا اقترب فليكن ذلك ليعبر عن رأي الناس وليس عن رأي الحكام. وليذكر أن ضوء السلطة الباهر يحرق الفراشات الملونة التائهة.

***

2

أسمهان لغز الأميرة والملك

(إلا أن أسلوب حياة الأميرة لفت أنظار حكومة فيتش الموالية للألمان، فرصدتها عيونهم حتى صدر الأمر باعتقالها، وجاء من يحذرها ويطالبها بسرعة الهرب، وبالفعل استطاعت الهرب بمساعدة أحد أمراء البدو عن طريق التنكر في زي عبد من عبيده، بأن طلت يديها ووجهها باللون الأسود في مغامرة تشبه مغامرات السينما....)

١٥ يوليو عام ١٩٤٤ نشرت الصحف هذا الخبر المثير:

* طلخا في ١٤ - كانت الفنانة السيدة أسمهان مستقلة سيارتها الخاصة وسائرة في الطريق الزراعي المؤدي من القاهرة إلى رأس البر، تصحبها صديقتها الآنسة ماري قلادة، فحدث في أثناء السير أن تردّت السيارة - وكانت تسير بسرعة غير عادية - في مكان شديد الانحدار "مطب"، وسقطت على إثر ذلك في ترعة الساحل على مقربة من بلدة شرنقاش، واستطاع السائق أن يقفز منها وينجو، ثم أخذ يستغيث فجاء بعض الأهلين والبكباشي محمود علي الشامي مأمور المركز وأخرجوا الفنانة وصديقتها جثتين هامدتين فارقتهما الحياة. ويستطرد الخبر: وبعد ذلك أخرجت السيارة وقامت النيابة بتحقيق الحادث، وأمرت باعتقال السائق، وقد أبلغ نبأ الحادث إلى الأستاذ فريد الأطرش، فجاء في المساء وتسلم جثة شقيقته وجثة رفيقتها بعد أن رخص بدفنهما في القاهرة.

وقال سليم بك زكي وكيل حكمدار بوليس القاهرة لمندوب إحدى الصحف وقتها: إن أسمهان كانت تعبر عن أمنيتها في الإقامة بمصر بعد أن أحبت أهلها وعاشت معهم حقبة من الزمن، وكأن الله أراد تحقيق هذه الأمنية فوافتها منيتها في مصر.

وعن أحد ألغاز الحادث قالت سطور الخبر: إن التحقيق يدور الآن لمعرفة كيف قفز السائق من السيارة ونجا من الموت؟!

كانت هذه هي نهاية (حياة) أسمهان، ولكنها كانت أيضًا حلقة في سلسلة الألغاز التي أحاطت بالأميرة الدرزية، التي أرادت - فيما يبدو - أن يكون لها دور في أحداث سياسية في فترة ملتهبة من تاريخ المنطقة والعالم، كما أرادت أن تكسر النطاق الضيق الذي اكتسبت أهميتها منه.. جبل الدروز، باعتبارها أميرة اكتسبت مكانتها من أهمية عائلتها في المنطقة، ومن زواجها من الأمير حسن الأطرش، أرادت - بعد أن أعجبتها لعبة السلطة - أن تلعب مع

الكبار، وساعدها على ذلك ذكاء خارق كانت تتمتع به الأميرة أسمهان، وطموح زائد لم تستوعبه شهرتها الفنية التي حققتها في القاهرة غنائيًّا أو سينمائيًّا، ربما بسبب ما أدركته بحسّها من أنه لا يمكنها أن تكون النجم رقم واحد في سماء الفن في مصر، حيث كان في مصر هرم فنيّ اسمه: أم كلثوم!

لكن قبل ذلك لا بد أن نعرف مَن هي الأميرة أسمهان؟

ولدت أسمهان في ٢٥ نوفمبر من عام ١٩١٢ على البحر المتوسط، وعاشت جزءًا من طفولتها في سوريا على بعد مائة كيلومتر من العاصمة دمشق في جبل الدروز، أبوها الأمير فهد الأطرش، وأمها الأميرة عالية المنذر، وعندما مات الأب خلال المقاومة الدرزية مع الفرنسيين، أخذت الأم أطفالها الثلاثة: فؤاد وآمال وفريد الأطرش الذي أصبح فيما بعد من أهم الموسيقيين والمطربين العرب حتى اليوم!

أخذت الأم أطفالها الثلاثة وسافرت بهم إلى حيفا، ومن هناك أخذت قطار فلسطين إلى مدينة القنطرة المصرية؛ لتفتح أمام أولادها عالمًا من المجد والشهرة بعد أيام من العذاب والفقر والحرمان، قاست خلالها الأسرة العذاب في شقة متواضعة في حي "باب البحر" الشعبي، ورغم ذلك كانت الأم حريصة على أن تُلحق أبناءها بالتعليم، فالتحق فؤاد وفريد بمدرسة الخرنفش، بينما التحقت أسمهان "آمال" بمدرسة الراهبات في شبرا، وهما مدرستان من بين المدارس الفرنسية التي كانت منتشرة خلال تلك الفترة، رغم أن الاحتلال الإنجليزي هو الذي كان يسيطر على مجريات الأمور.

وأمام الحالة الاقتصادية المتدنية وجد كلٌّ من: فؤاد الأطرش وفريد الأطرش أنفسهما أمام مسئولية إعالة الأسرة، فعمل الأول في أحد المعامل الطبية، بينما عمل فريد مسئولاً عن توزيع البضائع على دراجة بدائية لحساب أحد المتاجر التي كانت تعمل في بيع الملابس.

وفيما يذكر فؤاد الأطرش: كانت الأم تتمتع بصوت رائع الجمال، وكانت كثيرًا ما تدندن أمام أولادها، فاستجاب لنداء الكروان كلٌّ من فريد وأسمهان، وتأثرا بذلك الصوت البديع، وكان فريد هو الأكثر جرأة في الخروج بصوته خارج جدران البيت، وتعرّف على بعض كبار الموسيقيين أمثال زكريا أحمد، وداود حسني الذين ترددا على بيت آل الأطرش واستمعا إلى صوت أسمهان، وانبهر بصوتها داود حسني فتعهدها بالرعاية وتبنى موهبتها، وأعطاها اسمًا

جديدًا هو الذي اشتهرت به حتى يومنا هذا وهو اسم "أسمهان" وقد كان اسمها الأصلي هو "آمال الأطرش" بالإضافة إلى الاسم الذي كانت تناديها به الأسرة والمقربون وهو "إميلي"، وتم استبدال الاسمين باسم "أسمهان".

و.. كبرت أسمهان.. صارت أكثر نضجًا.. أكثر أنوثة.. أكثر فتنة.. وزاد من وقع أنوثتها كونها لم تنس أنها من عائلة أمراء، كانت تتعامل مع المحيطين بها كـ"ليدى"، بل كأميرة، وكان لديها مقدرة غريبة على أن تجتذب الرجال حولها.

وكان ذلك سببًا في قلق والدتها وأيضًا شقيقها فؤاد، أما الشقيق الثاني فقد كان – فيما يبدو – مشغولاً برحلة صعودها، أو أنه كان ينظر إلى خطوات شقيقته بترقب!

وفي أحد الأيام فوجئت أسمهان بابن عمها الأمير حسن الأطرش الذي تبين فيما بعد أن فؤاد الأطرش كان قد استدعاه لرؤية أسمهان حتى يصونها بالزواج إن أعجبته؛ لأن في عرفهم أن الدرزية لا تتزوج إلا من درزي مثلها، وبالتالي فابن عمها هو أحق الناس بها، ومع اللقاء الأول انبهر الأمير حسن بالسندريللا أسمهان، وطلب إتمام زواجهما فورًا والعودة بها إلى الجبل.. جبل الدروز.

نزل الأمر كالصاعقة على أسمهان التي كانت قد اعتادت على حياة المدينة الصاخبة، وكان الفن قد بدأ يعطيها شهرته وبريقه.

وأمام ضغوط الأسرة وافقت أسمهان على الزواج بشرط أن تكون إقامتها **في دمشق** باعتبارها الأقرب إلى حياة المدن الكبيرة، وألا ترتدي الحجاب – زي نساء جبل **الدروز** – والشرط الثالث ألا يحرمها الزواج من التردد على القاهرة، على الأقل كل شتاء.

وسافرت أسمهان – التي أصبح لقبها الرسمي بعد الزواج من الأمير حسن، هو الأميرة آمال الأطرش – بعد أن أقام لها الزوج قصرًا فاخرًا في دمشق، وجعل لها حراسًا من أقوى الرجال يرتدون زيًّا خاصًّا، بالإضافة إلى سيارة فارهة وسائق خاص.. باختصار اكتملت "الهالة" حول الأميرة التي تركت – مؤقتًا – عرش الغناء، وهو عرش معنويّ، إلى عرش الإمارة وهو عرش مادي، واقعي يرضي غرور وطموح أيه امرأة..

فهل قنعت الأميرة؟

الحقيقة أنها لم تقنع، ولا حتى بعد أن أنجبت طفلة جميلة للغاية أسمتها "كاميليا"، وظل الحلم بالشهرة وبالنجومية يطاردها في صحوها وفي منامها.

كـان الزواج يقف حائلاً بينها وبين حلمها، كما كانت الأمومة حائلاً آخر، وكذلك البعد عن القاهرة.. مركز الفن وبؤرة الضوء.

لذلك لم يكن أمام أسمهان إلا أن تترك قصر الزوجية، وأن تترك ابنتها لتحتضنها جدتها، وأن تـترك الإمـارة والـوجاهة والمـشاركة في الحكم.. نعم تركت كل هذا وعادت إلى القاهرة يداعبها الحلم القديم..

وفي القاهـرة كـان حكـم الملـك فاروق قد بدأ، وسرعان ما تناثر الكلام عن طيش الملك الـذي تـزامنت سـلطته مـع مـراهقته التـي اسـتغلها وقوّاها شلة المتنفعين التي تنبت شيطانيًّا بجوار كل حاكم جديد..

وأرادت الملكـة نـازلي والـدة فـاروق بإيعـاز مـن الأمـيرة شويكار أن تضع حدًّا لطيش فـاروق، فكـان الأمر بزواجه من الملكة الراحلة فريدة، وكانت أسمهان في تلك الفترة مطربة مـشهورة، فدُعـيت للغناء في حفل زفاف فاروق الذي أقيم في قصر عابدين، والغريب والمثير والطـريف والمؤسـف – كل هذا في آنٍ واحد – أن يشهد ذلك اليوم بداية إعجاب فاروق (في ليلة زفافه) بالمطربة الأميرة أسمهان!

ولكـن مفاجأة أخرى كانت بانتظار أسمهان ممثلة في إعجاب أشد حرارة من جانب أحمد حـسنين باشـا رئـيس ديـوان الملـك فـاروق، ويـبدو أن حـسنين باشا قد استطاع أن يستميل أسـمهان تجاهـه، ويـبدو أن أسمهان قد بادلته الإعجاب بمثله، ولكن على الجانب الآخر فإن الملكـة نـازلي والدة الملك فاروق كانت تعيش قصة حب ملتهبة – قيل إنها من طرف واحد – مـع أحمـد حـسنين، وبالطـبع فإنه لم يعجب الملكة الأم العاشقة أن تنافسها فتاة درزية حتى لو كانت صغيرة السن، تمتلك صوتًا كريستاليًّا وبشرة صافية وعيونًا خضراء لها سحر لا يقاوم!

كانـت المـواجهة عـند هـذا الحد أكبر من أن تواجهها أسمهان منفردة لا تملك إلا قوامها النحـيل، ليس عندها شيء تواجه به الأعداء إلا صوتها، وهو رغـم – قوته – لا يصلح في مثل هذه المعارك الشرسة!

عـلى الجانـب الآخـر مـن المـواجهة كانـت تقـف نازلي – الملكة – بقوتها ونفوذها.. قوة السلطة ونفوذ السلطان ورعب التاج الملكي الذي تضعه على رأسها.. صحيح أن فاروق كان غـير راضٍ عـن علاقـة أمـة بـرئيس ديـوانه، ولكنه كان يغمض عينيه اتقاء لغضب الأم التي كانت لا تتورع عن أي فعل ترى فيه سعادتها، حتى لو اتّسم ذلك بالفضيحة!

كـان لـنازلي عـيون وآذان عديـدة زرعـتها لرصد تحركات معشوقها أحمد حسنين، وكان هـؤلاء يـساعدونها في نـسج سياج من الحماية حول الرجل الدونجوان الذي كانت ترنو إليه الكثـير مـن المعجـبات، وكانـت نازلي حريصة على أن تبعده أولاً بأول عن هؤلاء المعجبات، ومِـن (عـيونها) عـرفت أن أحمـد حـسنين كثـير الإعجاب بالمطربة أسمهان، وأنه دائم التردد علـيها في مقـر إقامـتها في فـندق ميـنا هاوس، وأنه لم يعد يخشى الالتقاء بها علنًا في السهرات الاجتماعية..

وجـن جنون الملكة نازلي، ولم يغفر لأسمهان زواجها المفاجئ من المخرج أحمد بدر خان، فقد رأت نازلي هذا الزواج يمكّن أسمهان من الحصول على الجنسية المصرية، فجاء القرار: لا بد من إبعاد أسمهان عن مصر!

واستدعت نـازلي مـوظفًا كبـيرًا في القصر لمشورته في الأمر والإيعاز إليه بأنها تريد إبعاد أسـمهان فـورًا عـن مـصر، فأخبرها الرجل أن هذا ممكن لأن زواج بدر خان من أسمهان هو زواج عـرفي غـير موثـق، ولكنه أضاف إن بوسع بدر خان أن يتقدم بطلب لتجديد إقامتها في مـصر لمـدة عـام آخـر إلى أن يـتحول عقد الزواج من عرفي إلى شرعي، وعندما لاحظ الرجل علامـات الغـيظ عـلى وجه الملكة قال لها: إنه يمكن حل الموضوع عن طريق طلاق بدر خان من أسمهان، وقبل أن تكمل عدتها يتم ترحيلها حتى لا تتزوج من رجل آخر..

قالت الملكة: وكيف يتم الطلاق وبدر خان يحبها كل هذا الحب فيما أعلم؟

قال الرجل: نرسل إليه مَن يدسّ له بأن زوجته تخونه مع أحمد حسنين!

هنا قالت الملكة وهي تتهلل بالبهجة: نفِّذْ فورًا.

وفعـلاً ثـار بـدر خان لكرامته وطلق زوجته بسبب هذه الدسيسة التي لم يعرف حقيقتها إلا بعد (١٤) عامًا، بعد وفاة أسمهان!

أما أسمهان فقد اكتشفت الخطر الذي يحيق بها عندما تنتهي فترة إقامتها في مصر، وكيف أن الـسلطات ستبادر بترحـيلها فـورًا في مـصر تلبـية لـرغبة الملكـة نازلي، فبدأت تبحث بين معارفهـا، وتوسـط الباشـوات والـباكوات مـن الأصدقاء الذين بشروها في البداية بأن الأمر سـهل للغاية، ثم سرعان ما عادوا ليقولوا لها إن حصولها على الجنسية المصرية أمر صعب، بل مستحيل!

فقالت: ليه.. أنا عشت في مصر أكثر مما عشت في سوريا!!

قالوا: متأسفون.. إن جميع السلطات المسئولة تطلب مغادرتك البلاد فور انتهاء مدة إقامتك!

قالت: إنتوا باشوات ومش قادرين على طلب بسيط زي ده؟

قالوا: سنصارحك.. إن هناك جهات عليا تدخلت في الأمر لغير صالحك.

قالت: هل هي أم كلثوم؟

قالوا: لا.. إنها الملكة نازلي التي تدافع عن حبها لأحمد حسنين باشا، وتخشى مِن استمالتك له وسيطرتك عليه!

هنا ضحكت أسمهان ضحكتها الرفيعة الرنانة.. ضحكت وهي تضع يدها على صدرها استجداء للضحكة التي عزت عليها وهي في هذه الظروف القاسية، وضحكت حتى مالت برأسها إلى الوراء، رغم أنه كان يجب عليها أن تحني رأسها إلى أسفل خجلاً من هزيمتها في أولى معاركها..

عند هذا الحد، وهذا الموقف، تكشفت لأسمهان أمور عديدة، فقد اكتشفت ضعفها الشديد، رغم أنها كانت تظن العكس بما كانت تحيط نفسها به من باشوات وعِلْية القوم، حتى أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي خجلت من أن تلجأ إليه في مشكلتها هذه، فهو حتمًا يعرف، كما يعرف الكثيرون، ولكنهم مثلها ضعفاء لا يقوون على المواجهة، وربما تكون هذه الواقعة هي التي دفعت أسمهان لأن تسلّح نفسها بالقوة في مواجهة القوة!

لقد اكتشفت أنها إن أرادت أن تكبر وتعلو، فعليها النزول إلى حلبة الصراع ومواجهة الكبار!

ولكن قانون اللعبة هنا مختلف، فأنت لا تبارز بسيفك، بل بسيوف الآخرين، كما أنك لا تستمد قوتك من ذاتك بل من القوة التي تستند إليها وتركن ظهرك إلى صدرها.

ربما كان هذا هو الدرس المهم الذي تعلمته أسمهان من موقعة "نازلي/ أسمهان"، ولا بد أنها قررت شيئًا في ذلك اليوم، أو على الأقل كانت مستعدة لأن تأخذ قرارًا يقويها..

كيف...؟

لم يستمر زواج أسمهان من أحمد بدر خان سوى شهر أو أكثر قليلاً، ثم حصل الطلاق المدبر، وما تلاه من صفعة نازلي المدوية بطردها من مصر وإعادتها إلى جبل الدروز، وأحست أسمهان بالضعف والهوان، فأصيبت بالاكتئاب في ذلك الوقت وفكرت في الانتحار، وكانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت، وكان الإنجليز يسعون إلى أن يساعدهم الدروز، وبدأت العلاقة بينهم وبين أميرة جبل الدروز، ومِن بين "٤٩" كتابًا تناولت حياة أسمهان نتوقف عند الدراسة التي كتبها البريطاني "نيكولاس فاش" عن أسمهان والمخابرات البريطانية، والذي يؤكد في البداية أن العلاقة بدأت في القاهرة قائلاً: عندما قامت الحرب العالمية الثانية كانت أسمهان تعيش في القاهرة وأصبحت مطربة مشهورة، وكانت القاهرة في ذلك الوقت – رغم أجواء الحرب – واحة لحياة السلم، حيث كان الضباط البريطانيون يغادرون الصحراء ليقضوا إجازتهم في القاهرة كأنهم يعيشون في الفردوس!!).

وكانت سوريا ولبنان تحت سيطرة قوات حكومة "فيتشي" الموالية للألمان، وكانت خطة بريطانيا دخول سوريا ولبنان وطرد تلك القوات، وكانت هذه الخطة تقتضي الاتفاق مع زعماء جبل الدروز على عدم التعرض للقوات البريطانية عند عبورها الجبل للدخول إلى سوريا، والسماح لها بالتقدم دون مقاومة، ومن هنا جاء دور أسمهان، فقد لجأت إليها المخابرات البريطانية للاستعانة بها باعتبارها أميرة درزية ومطلقة أمير جبل الدروز "حسن الأطرش"..

كان دورها يتمثل في إقناع زعماء الجبل لتهيئة الوسائل اللازمة لضمان نجاح تلك المغامرة..

ومن أجل نجاح مهمتها قررت أسمهان العودة إلى زوجها الأول الأمير حسن الأطرش. ومضت أسمهان في تلك الخطة، وحسب ما جاء في كتاب فرنسي حديث بعنوان "النيزك.. قدر أسمهان المحتوم" لكاتبة فرنسية من أصل لبناني تدعى "ماري سورا"، تقول سطور الكتاب (حسب ترجمة روز اليوسف العدد ٣٧١٥) "عادت أسمهان إلى زوجها عام ١٩٤١، وكانت قد طلقت منه عام ١٩٣٩، وقررت أسمهان أن تضع نهاية لحياتها الفنية، وتكريس كل حياتها لأسرتها، ففي بيروت، وفي إحدى السهرات الكبيرة، قامت الأميرة بالظهور للمرة الأولى متأبطة ذراع زوجها الذي أصبح بعد ذلك بفترة وزيرًا للحرب، وقابلت أسمهان الجنرال ديجول أثناء مروره بالشرق الأوسط، وقيل إنه التقى بها في مباحثات مهمة لوقت طويل، وإنه أعجب بها وبجمالها وبثقافتها.

وتحكي الكاتبة – نقلاً عن مصادرها – أن أسمهان لم يكن يهمها الملابس الغالية ولا المجوهرات ولا أي شيء له ثمن، فقد كانت تلعب القمار في كازينوهات بيروت – التي سجلت فيها أغنيتها الرائعة "ليالي الأنس في فيينا" – وتنفق ببذخ وبدون حساب، وانتهت حياتها سريعًا مع الأمير حسن – للمرة الثانية – بالانفصال.

ولكنها كانت مستمرة في علاقتها بالمخابرات البريطانية، فاستطاعت أن تقنع مشايخ القبائل وكبراءهم بعدم التورط في الحرب، والمقابل.. حقيبة مملوءة بالذهاب تلقتها من المخابرات البريطانية، وقامت بتوزيعها بأمانة شديدة.

ويبدو أنه حقًّا لم يكن المُلك ولا الذهب يشغلان بال الأميرة أسمهان، بل كانت تبحث عن (القوة) التي تمكنها من رد اعتبارها أمام الصفعة التي تلقتها من الملكة نازلي، والتي تساعدها على البقاء فنيًّا في المكان والمكانة التي تريدها!

إلا أن أسلوب حياة الأميرة لفت أنظار السلطات التابعة لحكومة "فيتش" في سوريا والموالية للألمان، فرصدتها عيونهم حتى صدر الأمر باعتقالها، وجاء مَن يحذّرها ويطالبها بسرعة الهرب، وبالفعل استطاعت الهرب بمساعدة أحد أمراء البدو عن طريق التنكر في زي عبد من عبيده، بأن طلَت وجهها ويديها باللون الأسود في مغامرة تشبه مغامرات السينما، حتى وصلت إلى حدود الأردن ثم فلسطين، حيث سلّمت المعلومات التي لديها إلى الجنرال "باص"، وبعد يومين فقط زحفت قوات الحلفاء حتى تمكنت من دخول سوريا ولبنان، وطردوا منها حكومة فيتش الموالية للألمان، وقد رافقت أسمهان قوات الحلفاء في زحفها على سوريا ولبنان، فقدّر لها الإنجليز هذا الدور المهم! وكذلك صنعت لنفسها مكانة لدى الفرنسيين، وانهالت عليها المكاسب، وأصبح لها سلطة ونفوذ، فصارت تتوسط بين شيوخ القبائل وسلطة الاحتلال في بعض الأمور، ووعدها الإنجليز بالرحيل إلى مصر بعد هدوء الأمر على جبهة سوريا ولبنان.

انغمست الأميرة في حياة الترف والبذخ والسهر والشراب، الأمر الذي جعل الجميع يتساءلون عن مصدر تلك الثروة التي هبطت على الأميرة، وهو ما جعل الجنرال "باص" رجل المخابرات البريطانية ينقلب على أسمهان ويفقد حماسه لها؛ بسبب إدمانها للخمر الذي يتنافى مع التحكم في النفس، وفي اللسان الذي هو ألف باء العمل بالمخابرات.

ومـن المهـم أن نقرأ هنا هذه الشهادة لفؤاد الأطرش الذي يقول فيها: "بدأ الجنرال باص ينظـر لأسـمهان على أنها مصدر خطر، فشرع في التخلص منها بكل هدوء، حيث كان يعرف أنهـا قـوية الـنفوذ بالـنقود، والنقود مِن عنده، فقبض يده عنها، وبدأت أسمهان تشعر ببوادر الإفـلاس، ولكـن هـذا لم يثـنها عـن بـذخها؛ لأن الجنـرال الفرنسي "كاترو" وثّق علاقته بها لاستمالتها، ولكن المال الذي كانت تتقاضاه من الفرنسيين لم يكن يغطي مصاريفها".

ومـن هـنا نكتـشف انقـلاب أول جهـة تعاملـت معهـا أسمهان عليها، وهي المخابرات البريطانية، وإذا أضفنا إلى ذلك غيرة الملكة نازلي منها ومصلحتها في إبعادها عن مصر – وربما عـن الحـياة – والفجـوة بيـنهما، ومـا حدث من أسمهان تجاه الملكة نازلي في فندق الملك داود بالقـدس؛ فقـد كانـت الملكـة تقـضي ليلة تراقص الضباط الإنجليز، وعندما علمت أسمهان بوجودها تعمدت إهانتها أمام الجميع، ردًّا للصفعة التي سبق أن تلقتها من الملكة في القاهرة.

وهـذه عـدو آخـر لأسـمهان في ألعابها الخطرة، عندما أوهمت صحفيًّا أمريكيًّا بأنها على اسـتعداد للـتعاون مـع الألمـان، ثـم استدرجته داخل قطار حتى ألقى الإنجليز القبض عليه، فخلقت لنفسها عداوة أخطر مع الألمان!

أمـا إذا كـان صـحيحًا مـا قـيل عن أنها حاولت الانقلاب على مخابرات بريطانيا وفرنسا واللعب مع الألمان ضدهما، بعد أن قل تقدير الأول لها، فإن الخطر يصبح أشد وأعنف!

ولكـن مـن بـين كل الاتهامات التي تناثرت حول المتسبب في مصرع أسمهان، فإنه يشار دائمًا إلى المخابرات الإنجليزية، فهذا هو عزيز المصري باشا يحكي في مذكراته:

"أبـو الثائـرين عزيز المصري" الذي صاغه محمد عبد الحميد، يقول: "لما رأت المخابرات الإنجليـزية أن تـرك أسـمهان أمر بالغ الخطورة، كان القرار بالقضاء عليها، وتم تدبير حادث مـصرعها بالقـرب مـن المنـصورة، ثم أطلقوا الشائعات بأن أم كلثوم وراء مصرعها، وعملوا على ترويج هذه الشائعة..

في حـين أشـار الـبعض إلى المخابـرات الفرنـسية، والـبعض الآخـر أشار إلى المخابرات الألمانية، بينما أكد البعض أنها الملكة نازلي...

واخـتلط الأمر على المتابع المدقق، ولكن يبقى (الفعل)، وهو هذه النهاية المأساوية لفنانة لم تقنع بدورها الفني وراحت تلعب مع الكبار ظنًّا بأنها واحدة منهم..

وهذا هو الخطأ..

***

3

كاميليا بين السينما والتجسس

(وبـدأت كاميلـيا تلفـت إلـيها الأنظـار في الكلـوب المصري، بملابسها الفاخرة الملفتة للأنظار، وبرقصها المثير، فتنـبه إلـيها [بـوللي] أشهر صائد للنساء، ليس لنفسه، وإنما لمليكه فاروق الأول ملك مصر في ذلك الزمان)

الإثارة والألغاز في حياة هذه النجمة المثيرة منذ مولدها، وتحديدًا في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر عام (١٩١٩)، فهذه المولودة الطفلة التي استقبلتها الدنيا في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم، رغم أنها سجلت في سجل المواليد باسم "ليليان فيكتور كوهين"، ورغم أنها نُسِبتْ إلى ذلك الأب، إلا أن الكثيرين قد أكدوا أن "ليليان" لا تمتّ إلى ذلك الرجل بأية صلة، وحلّ ذلك اللغز بسيط للغاية عند من كشفوا أوراقه؛ فالأم "أولجا" - اليونانية الأصل - تزوجت ثلاث مرات؛ الزواج الأول من موظف سكندري مسلم الديانة، والثاني من تاجر موبيليا شهير وقتها - وهو سكندري أيضًا - مسيحي الديانة، أما الثالث فهو المدعو "فيكتور كوهين" وهو - كما يتضح من اسمه - يهودي الديانة، ومن هنا نكتشف الاكتشاف الأول وهو أن "أولجا" - الأم - قد جمعت في زيجاتها بين الديانات السماوية الثلاث المنزلة، ولسبب غير مفهوم اختارت "أولجا" الزوج الثالث لتنسب ابنتها المولودة له؛ ليصبح اسمها في السجلات الرسمية "ليليان فيكتور كوهين"، إلا أن "فيكتور" أنكر هذه البنوة، وانتزع من الأم "أولجا" تعهدًا بألا ترثه هذه الابنة المزعومة (حرص يهودي معهود، وخوف على المال حتى بعد الرحيل!).

ويبدو أن تهديد اليهودي الغاضب قد حقق المراد، فنجد الأم تذهب بمولودتها "لتعميدها" في الكنيسة استنادًا إلى ديانتها (وإن كنا سنكتشف فيما بعد ميول ليليان - التي ستصبح كاميليا - إلى اليهودية، وما قيل عن الخدمات السرية التي قدمتها لإسرائيل).

كبرت البنت والتحقت بمدرسة السبع بنات، وهي مدرسة تديرها وتشرف عليها الراهبات، وظلت فيها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها، وإلى هنا كان كل شيء في حياة هذه الفتاة يسير على ما يرام، فمدارس الراهبات معروف عنها الحزم والصرامة في تربية الأولاد والبنات، بل وبصفة خاصة (البنات)، إلا أن الفتاة "ليليان" التي أصبحت على أولى درجات سن المراهقة، قد اكتشفت تفجر مظاهر الأنوثة في جسدها الذي بدا وكأنه قد نضج قبل موعده!

ويبدو أن والدتها قد لاحظت ذلك – ولا بد أن تكون قد لاحظت – فخافت عليها، ليس مستبعدًا على مثل تلك الأم أن تخشى على ابنتها من زحام العاصمة، ومن شراسة نظرات القناصين لغزال شارد، فألحقتها بإحدى مدارس مدينة الإسكندرية؛ لتكون تحت بصرها وحمايتها.

ولكن النتيجة جاءت عكسية؛ فالفتاة جميلة، مثيرة، ذات قوام فارع، ممشوق، كل ما فيها مثير، محرض على نظرات الرجال، فالبشرة بيضاء بلون الصفاء، تشع من وجهها عينان براقتان، ساحرتان، تدعوانك للسفر فيهما – ومعهما – إلى المجهول، وشفتان مكتنزتان بلون حبات الكريز، كأنهما تنتظران دومًا.. القُبَل!

والتقطها – أول ما التقطها – ضباط الاحتلال الإنجليزي، (وكأن هذا ما كان ينقص)، ويبدو أنهم رأوا فيها اجتماع نموذج الجمال الأوروبي (الشعر الذهبي والبشرة البيضاء) بسحر الشرق وجاذبيته، إضافة إلى القوام الممشوق، وقد لاقت مغازلاتهم استجابة من جانب هذه الفتاة التي كانت تبحث عن مغامرة..

وهكذا وضعت "ليليان فيكتور كوهين" قدمها على أولى درجات السلم الذي سيصعد بها إلى.. الهاوية!

***

نحن الآن في القاهرة حيث قررت "ليليان" أن تأتي إلى العاصمة بحثًا عن (شيء) وعن (شخص)، لم تكن حتى هذه اللحظة تعرف ما هو الشيء الذي جاءت القاهرة تبحث عنه، ولا مَن هو الشخص الذي سيساعدها في الحصول على ما تريد، ولكنها رغم ذلك قد جاءت!

في البداية نزلت في فندق سميراميس بمساعدة بعض الضباط الإنجليز الذين تعرفت عليهم في الإسكندرية..

وفي القاهرة التقطها دونجوان الأربعينيات الفنان أحمد سالم، ويبدو أنها رأت في أحمد سالم الشخص الذي كانت تبحث عنه؛ فهو رجل ذو جاذبية تسكر النساء اللاتي يبحثن عن متعة من نوع خاص، كما أنه رجل سخي بطبعه لا يعرف البخل، ويحب المال لينفقه، أيضًا فإن أحمد سالم كان في نظر "ليليان كوهين" هو البوابة الذهبية للدخول إلى "الفن" الذي اكتشفت

أنـه "الشيء" الذي كانت تبحث عنه، والذي يمكن أن تعْبُر منه إلى نوعية الحياة التي تريدها.. الـشهرة والمـال والاستمتاع والإثارة! ولعل الأخيرة "الإثارة" كانت هي الشيء المحدد الذي تبحث عنه هذه الفتاة، التي سارت حياتها على نحو يجعل الباحث يضع عشرات من علامات الـتعجب بعـد ذكـر كـل خطـوة كانـت تخطوها، وكل موقف طُلِب منها أن يكون لها ردّ فعل تجاهه!

***

نحـن الآن داخـل شـقة الفـنان أحمـد سالم بشارع عبد الخالق ثروت بمنطقة وسط مدينة القاهـرة، كـان ذلك في ربيع عام ١٩٤٦، وقد وجه الدعوة إلى عدد كبير من المحررين الفنيين للإعـلان عـن اكتـشاف جديد له، ووسط لهفة الصحفيين وهرولتهم إلى الفنان المغامر كانت المفاجأة: فقد وقع بصرهم على فتاة عارية تمامًا، عفوًا.. هكذا خيل لهم في بداية الأمر، ولكنهم سرعـان مـا اكتـشفوا أنهـا تـرتدى "مايـوه" بلـون الجـسم تمامًا، ومن شدة التصاقه بجسدها المشوق، كان يكشف أكثر مما يستر، ويكاد يُصرح بما يخفي!

لم يكـن الـصحفيون في حاجـة بعـد ذلـك إلى مـا قاله أحمد سالم، من أن الفتاة التي تقف أمامهم بابتسامتها المغرية، وأنوثتها الطاغية، هي أحدث اكتشافاته الفنية، لم يكونوا بحاجة إلى هذه الجملة لأنهم فطنوا إليها، واستنتجوها، وأضاف أحمد سالم أنه وقّع عقد احتكار مع بطلته الجديـدة لمـدة ثلاث سنوات للعمل معه في أفلامه، وأن باكورة إنتاجه لها سيكون فيلمًا بعنوان "الـست الكبـيرة"، ومـع الأسـئلة المتلاحقة التي انهالت على البطلة السينمائية الجديدة، أبدى الـبعض ملاحظـة حـول لكنـتها "الخـواجاتي" التي قد لا يتقبلها الجمهور المصري، وكان رد الدونجوان أحمد سالم بأنه قرر أن يعهد إلى مجموعة من المدرسين في مختلف العلوم والفنون، بما فيها اللغة العربية، لتثقيفها وتعليمها وصقلها...

وخـرجت الـصفحات الفنية في الأيام التالية تحمل نبأ الاكتشاف السينمائي الذي سيهدد عـرش الـنجمات "الفيديت" الجميلات، وراح البعض يصف النجمة القادمة بدءًا من شعرها الذهبي، وعينيها الفاتنتين، وشفتيها المكتنزتين...

مـن ناحـية أخـرى بدأت "ليليان"، التي أصبحت "كاميليا" كما أطلق عليها الدونجوان تـشبيهًا لهـا بـبطلة الرواية العالمية الشهيرة "غادة الكاميليا" – والصدفة أن بطلة الرواية كانت

تبحث عن المتعة وتجري وراء اللذة.. فهل كانت صدفة؟! - بدأت كاميليا تظهر في السهرات متعلقة بذراع "الدونجوان"، فكان الجميع يحسدون عليه استيلاءه على صاحبة العينين اللتين وصفهما كامل الشناوي بأن بهما إشعاعًا يسحر الناظرين، والشفتين اللتين تماثلان حبات الكريز، والطريف أنها لم تفهم معنى قصيدة كامل؛ لأنها كانت تجيد اللغتين العبرية والفرنسية، في حين أنها لم تكن حتى ذلك الوقت تتقن اللغة العربية، وتطوع الأديب الكبير توفيق الحكيم فشرح لها معنى القصيدة بالفرنسية، ويصف الكتاب والفنان ناصر حسين (روز اليوسف العدد ٣٣٥٧) رد فعل كاميليا عندما سمعت القصيدة باللغة التي تفهمها: "أنها نظرت نظرة سريعة إلى كامل الشناوي، ثم ضحكت ضحكة هستيرية، وتوقفت بعدها عن الكلام والضحك"!

ورغم هذه الأنوثة الطاغية، إلا أن "الدونجوان" قد ملّها وراح يبحث عن حب جديد، فتعلّق بممثلة شهيرة عُرِفت بلقب "سمراء الشاشة"، وبسبب هذه العلاقة الجديدة لم يَفِ الدونجوان بتعاقده مع كاميليا، فلم يُنتج لها أية أفلام، وكادت أحلام كاميليا في حياة البذخ والترف والنجومية أن تتبخر، لم تكن حزينة على ضياع فرصة الثراء والشهرة باعتبارها كانت تحب المال، وهي صفة يهودية متأصلة.. كانت تعلم أن أحمد سالم سيتركها إن عاجلاً أو آجلاً، فهو الذي قال لها يومًا: إن النساء تحبه لأنه يحتقرهن(!)

ومن جانبها قررت كاميليا أن تعامل الدونجوان بالمثل، وقررت أن تبحث عن رجل آخر يحقق لها أحلامها بعيدًا عن أحمد سالم، وتعرفت بالفعل على صاحب مصنع للنسيج في شبرا الخيمة، الذي ذهب بها إلى "الكلوب المصري" وهو مكان كان يرتاده كبار القوم من رجال المال والسياسة، وهو بالتحديد المكان الذي كانت كاميليا تحلم به لفترة طويلة من عمرها، وبدأت كاميليا تلفت إليها الأنظار عن عمد في الكلوب المصري، بملابسها الفاخرة اللافتة للأنظار التي اشتراها لها تاجر النسيج، كما لفتت الأنظار برقصها المثير، فتنبه إليها "بوللي" أشهر صائد للنساء، ليس لنفسه، وإنما لمليكه فاروق الأول ملك مصر في ذلك الزمان.. ولكن "بوللي" بخبرته ودرايته بنفسية الملك فاروق، كان يعرف أن ملكه لا يحب النساء المغرورات، بل إنه يفضل المشهورات منهن من نجمات الفن أو من زوجات الكبراء.. عقدة يعني!

فوضعها بوللي في قائمة الانتظار..

وفي هـذه الأثـناء تفـتق ذهـن أحمـد سالم لأن يستثمر كاميليا، وأن يستعيد جزءًا مما أنفقه علـيها، فقـرر أن يمـنحها ليوسـف بك وهبي - المنتج والممثل الكبير - لتكون بطلة لأفلامه، وكانـت لـدى يوسـف وهبـي بالفعـل رغـبة في أن يـستثمر الضجة الإعلامية التي صاحبت اكتـشاف كاميليا، وتمت الصفقة بين أحمد سالم ويوسف وهبي مقابل ثلاثة آلاف من جنيهات ذلـك الـزمان - وهـو مبلغ ضخم وقتها - وكان ما حدث صدمة - إن لم تكن لطمة - تلقتها كاميلـيا، بعـد أن أيقـنت أنهـا شـخص غـير مـرغوب فـيه مـن جانـب قاهر النساء، فقررت الانـتحار، والانـتحار مغامـرة ويـأس وإعلان فشل مِن جانب مَن يقدم عليه، ولكن كاميليا كانـت جادة في عزمها على الانتحار، فاتصلت بأحمد سالم وطلبت مقابلته لإنهاء عقد احتكاره لهـا، وبعـد أن أغلقـت سـماعة الهاتـف ارتـدت ثوبًا منزليًّا يكشف عن أنوثتها - ربما ليتحسّر علـيها الدونجوان - واستلقت على أريكة في حجرة الاستقبال، بعد أن ابتلعت كمية قاتلة من عقـار مـنوم، وجـاء أحمـد سالم، وفتح باب شقتها بمفتاح يحتفظ به في جيبه؛ فقد كانت الشقة التـي تـسكنها في الدور التاسع من عمارة الإيموبيليا بشارع شريف بوسط القاهرة، هي الشقة التي استأجرها خصيصًا لها لتكون قريبة من منزله على بعد أمتار..

لاحـظ أحمـد سالم أن هناك شيئًا غير طبيعى في نوم كاميليا، واكتشف أن نبضها ضعيف، فاتـصل عـلى الفـور بأحـد الأطـباء، وتم إسعافها، وبعد أن عاد إليها وعيها قال لها: "أحبك بدون أقراص منومة".

واتـصل بعـدها بيوسـف وهبـي وأعطاه ما دفعه من مال ليستعيد كاميليا، ولكن كاميليا كانت قد عزمت على شيء أسرَّتْه؟!

***

كانـت كاميلـيا قـد قـررت أن تعـيش حـياتها بالطـول والعرض أكثر وأكثر، وألا تمنعها علاقـتها بالدونجـوان مـن أن تقـيم علاقـات أخرى تحقق لها مكاسب أكبر، فترددت بشكل منـتظم على الكلوب المصري، ومنه تعرفت على رجل أردني ثري يمتلك طائرة خاصة، وأمام إغـراءاتها قرر الرجل أن ينتج لها فيلمًا يقدمها بشكل جذاب، ووعدها أن ينفق على الدعاية لها بـبذخ، ويقـال إن "بـوللي" سـكرتير فـاروق كـان يقـف خلف العرض؛ كي تتحقق نجومية كاميليا، وبالتالي يستطيع أن يقدمها كهدية يسيل لها لعاب الملك.

والطريف أن هذا الرجل الثري عندما خرج عن حدود الدور المرسوم، وبدأ يلقي على ما مع كاميليا كلمات الحب ويطلب مقابلاً لخدماته، ألقي القبض عليه بتهمة الاتّجار في المخدرات، وكتب البعض أن الرجل كان يتاجر بالفعل في المخدرات، وأنه كان مسكوتًا عنه مقابل خدمة "تلميع" كاميليا، وعندما تجاوز حدوده، تم التعامل معه بالقانون الذي كان نائمًا!

وتعرفت كاميليا بسرعة على رجل آخر، حاول إرضاءها وتلبية مطالبها الكثيرة، وإنتاج فيلم لها، فاختلس مبلغًا كبيرًا من المال، وانكشف أمره، فدخل السجن هو الآخر!

وعلقت كاميليا على ذلك بأنها لم تطلب من أحد الاختلاس من أجلها!! وتعددت صداقات كاميليا بين مخرجين ومنتجين ورجال مال، وراحت تنتقل بينهم، بدون مشاعر حقيقية، بل كل ما في الأمر أنها كانت تسعى وراء المال والشهرة والمغامرة!

ومرض أحمد سالم بعد أن رأى التمثال الذي صنعه يتمرد عليه.. ولم تأبه "المغامِرة" بذلك، بل راحت تنفق المال الذي جمعته على القمار، فأدمنت لعب الورق والمراهنة على سباق الخيل، وتعودت السهر، وعشقت السفر.

* * *

أما عن علاقة كاميليا بالملك فاروق فإننا نترك الكاتب مصطفى أمين يحكي عنها كما جاءت في صفحات كتابه "ليالي فاروق" الصادر عام ١٩٥٤..

يقول مصطفى أمين عن قصة اللقاء الأول بين فاروق وكاميليا: "ذات ليلة ذهب أحمد سالم إلى الأوبرج بشارع الأهرام ومعه كاميليا، ورأى أحمد سالم الملك فاروق جالسًا إلى مائدة في الصف الأول، ولاحظ أن مائدته في الصف الأخير، وتضايق أحمد سالم وحاول أن يجد مائدة بالقرب من فاروق، فوجد كل الموائد محجوزة.. وكان أحمد يعتقد أن فاروق يغار منه. وقد روي مرة أن فاروقًا رآه يقود سيارة "ألفا روميو" فأخذ يعدو بسيارته في طريق الملكة نازلي ليعرف مَن هو راكب السيارة، فأسرع أحمد سالم بسيارته ليغيظ فاروق الذي أسرع وراءه إلى أن سبقه، وكان أحمد سالم مريضًا – كفاروق – بحب الاستعراض، فأراد أن يغيظ فاروق بأن يجعله يراه مع الكوكب الجديد كاميليا، وكان أحمد يكره الرقص ولكنه انتهز فرصة عزف الموسيقى لرقصة الفالس فسحب كاميليا من يديها وقال لها: تعالي نغيظ فاروق!

وراح أحمد سالم يلف كاميليا أمام فاروق، وتعمّد أن يضم كاميليا إليه بشدة وهو يرقص، وينحني عليها ويدور بها ويداعبها ويلاعبها، وكأنه يخرج لسانه للملك فاروق! وانتهى الرقص وعاد أحمد سالم وكاميليا إلى المائدة. وقال أحمد سالم: لن ينام فاروق الليلة، هذه أول مرة يرى فيها فاروق امرأة جميلة ولا يستطيع أن يأخذها!

هذه هي رواية الكاتب مصطفى أمين، ولكن الكاتب ثروت فهمي له رواية أخرى (مجلة آخر ساعة)؛ فهو يؤكد أن اللقاء الأول بين فاروق وكاميليا كان في قبرص وليس في الأوبرج، فقد كانت في رحلة إلى قبرص وتقيم في فندق "مخوزست بارك"، وذات يوم كانت مع صديقين قبرصيين وحدث هرج ومرج داخل أروقة الفندق، وعندما سألت عن السبب قيل لها إن ملك مصر سيحضر إلى الفندق لقضاء بعض الوقت، وجرت بقية الوقائع على النحو التالي:

"منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظر فاروق على كاميليا أصبحت مَحطّ نظره، وفوجئت كاميليا بصديقتها زوجة أحد المليونيرات تجيء إليها وتطلب منها أن تلحق بها في الصالون بعد الشاي، وعندما لاحظت دهشة كاميليا قالت لها: إن مولانا والحاشية سألوا عنها، وتقدمت كاميليا لمصافحة الملك، فقام فاروق لمصافحتها وسألها: اسمك إيه يا مدموازيل؟ فقالت: كاميليا.. قال: أهلاً وسهلاً.. أنا سمعت فعلاً عن ممثلة جديدة اسمها كاميليا. وسألها: مع مين بتمثلي؟ قالت: مع أحمد سالم.. قال: وبتعملي إيه في قبرص؟ قالت: الحقيقة عاوزة أهرب من أحمد سالم لأنه راجل شراني وأنا موش متعودة على الشر، وأدعو الله أن يرسل لي مَن ينجيني مِن شره، فقال الملك: ارجعي مصر وأحمد سالم موش حيكلمك كلمة واحدة! وطبعًا طلبها الملك للسهر إلى جواره على منضدة القمار، ولبّت هي النداء.

وتمضي الأيام، وتعود كاميليا إلى مصر، كما يعود الملك، وتتلقى مكالمة تليفونية من شخص يدعى أنه من شركة إنتاج سينمائي ويحدد معها موعدًا في اليوم التالي، ويرسل لها سيارة، وفي داخل السيارة تكتشف أنها تجلس إلى جوار "بوللي" سكرتير الملك للأشياء الخاصة جدًّا، وتذهب معه فرِحة بأن الملك مازال يتذكرها، وتعود من قصر عابدين وهي مصابة بالزكام!

ويؤكد الفنان رشدي أباظة في مذكراته أن الملك كان يحب كاميليا بجنون، ولذلك سيطرت عليه سيطرة كاملة، بل إنها تعمدت أن تقيم مع آخرين علاقات عاطفية لتلهب بها عواطف الملك، وانتشرت حكايات بين مجتمع الصالونات بأن كاميليا قد حملت من الملك

فاروق، وأنه يعتزم الاعتراف بالوليد في حالة كونه ولدًا حتى يرث العرش، ولكن كاميليا خيبت آماله عندما سقطت من فوق الحصان لتجهض وهي في الشهر السادس من الحمل.

***

هل كانت كاميليا حقًّا عميلة للمخابرات الإسرائيلية "الموساد"؟!

- الحقيقة أن الرأي حول تلك النقطة قد انقسم ما بين مؤيد ومعارض، فالفريق الذي اتهم كاميليا بالجاسوسية قال: إنها عضو نشط في شبكة التجسس على الملك وعلى الأوضاع السياسية في مصر في فترة مهمة من فترات الصراع العربي الإسرائيلي، مستندًا إلى علاقة كاميليا الخاصة جدًّا بالملك فاروق الذي كان يدللها ويناديها باسم "كامي"! وقد كانت كاميليا تكبر فاروق بشهر و٢٨ يومًا، وهي - على الأرجح - من مواليد ١٣ ديسمبر عام ١٩١٩ وليس ١٩٢٩ كما يقول البعض؛ لأنها ماتت محترقة في حادث طائرة يوم الخميس وتحديدًا في الساعة الأخيرة من ذلك اليوم الموافق ٣١ من أغسطس عام ١٩٥٠، وليس معقولاً أن تكون قد توفيت عن ٢١ عامًا فقط رغم كل ما عاشته من أحداث!

وتغلغلت كاميليا داخل عقل ومشاعر الملك حتى إنها عرفت قرار طلاقه من الملكة فريدة قبل إعلان الخبر رسميًّا، وعلى هذا فقد توافرت لها الظروف التي تجعلها على دراية بأدقّ الأحداث والتفاصيل داخل القصر أكثر من أي شخص آخر، كما أنها اقتربت واخترقت دائرة مجتمع رجال السياسة والمال، معتمدة على أنوثتها الطاغية، وموهبتها في استقطاب الرجال!

فها هو حنفي المحلاوي في كتابه "فنانات في الشارع السياسي" يؤكد أن كاميليا كانت عميلة من الدرجة الممتازة، وأنها كانت مرتبطة بالموساد في الفترة من عام ١٩٤٨ وحتى وفاتها عام ١٩٥٠، أما أستاذ التاريخ الدكتور محمود متولي فيقول: إن كاميليا كانت مزودة ببعض التعليمات من الوكالة اليهودية في تل أبيب، وكان في استطاعتها السفر في أي وقت تحت ستار عملها بالتمثيل، ويحدد "قبرص" كمكان لالتقائها مع عملاء الوكالة اليهودية، كما أنه لا يستبعد أن تكون أخبار سير العمليات القتالية في فلسطين التي كانت تحت بصر فاروق تصل إلى كاميليا أثناء علاقتها به التي امتدت من عام ١٩٤٦ وحتى نهاية عام ١٩٤٩، بل أكثر من ذلك أن الدكتور محمد متولي يرى أن كاميليا كانت أيضًا عضوًا في شبكة الإساءة إلى مصر؛ حيث كانت تقوم بتصوير الأحياء الشعبية الفقيرة بشكل غير لائق.

هـذا عن المؤيدين لجاسوسية كاميليا، أما المعارضون فيعتقدون أن الملك فاروق هو الذي أشاع هذه التهمة عنها عندما ملّ الحياة معها وأراد أن يتخلص منها(؟!).

وأكثـر مـن هذا أن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن فاروقًا هو الذي دبَّر لها حادث الطائرة عندما اكتشف أنها تخونه مع غيره من الرجال.

وقالـوا إن سـلاح الطـيران الملكـي لم يَقُـم بالـبحث عن الطائرة المفقودة داخل الأراضي المـصرية، والتـي تـم الكـشف عـنها محترقة عند مدينة الدلنجات بمحافظة البحيرة، ولكن.. كـيف وقـع الحـادث مـنذ الـبداية؟ كانـت كاميلـيا تشعر بآلام متكررة في معدتها وأرادت أن تطمـئن عـلى صحتها وتعالج هذا المرض، فاتصلت بواحد من أشهر الأطباء الأجانب، الذي أعطاهـا مـوعدًا بعـد يومـين، واتـصلت بـشركة طيران "T.W.A" وطلبت حجز تذكرة في أقـرب وقت ممكن، ولكن موظف الحجز اعتذر لها بأن العدد مكتمل على الرحلة القادمة، إلا أنهـا قابلـت اعـتذاره بـرد عنـيف؛ فكيف لا تجد مكانًا على الطائرة وهي النجمة اللامعة التي عـرفت طـريقها إلى العالمية عن طريق المنتجين اليهود في الفيلم الإنجليزي "طريق السموم"، وأغلقـت الـساعة وذهـبت لتـسهر مـع مجمـوعة من الأصدقاء ومنهم المطرب الراحل فريد الأطـرش، فلاحـظ الجمـيع علـيها الحزن والوجوم، وعندما سألوها عن السبب أخبرتهم ما حـدث لهـا مـع شركة الطيران، ولكن سرعان ما دقّ الهاتف وكان المتحدث هو نفسه موظف شركـة الطـيران الذي قام بمحاولات عديدة حتى عرف بمكان وجودها، وأخبرها في سعادة بـأن أحـد الـركاب قد اعتذر عن عدم السفر على الرحلة (كان هذا الراكب هو الكاتب أنيس منـصور) وأنـه الآن أصـبح باستطاعتها السفر على الرحلة التي ستتحرك من مطار القاهرة في مـساء الـيوم التالي، وهللت كاميليا من الفرحة وذهبت إلى منزلها لتستعد للسفر بعد أن قامت بـتوديع أصـدقائها، ومن الأفضل الآن أن نقرأ هذا الخبر الذي كتبه قلم الكاتب محمد حسنين هـيكل في أخـبار الـيوم في العدد الصادر يوم ٢/ ٩/ ١٩٥٠، إذ يقول: بدأت قصة الرحيل في الـساعة الثانـية عـشرة والنصف صباح يوم الخميس ٣١/ ٨/ ١٩٥٠ بهبوط طائرة T.W.A الـتابعة لـشركة الخطـوط الجـوية العالمية، وقد ركبت كاميليا مع ستة ركاب من مطار القاهرة وأقلعـت مـن المطار، وكان آخر اتصال لها عن طريق اللاسلكي في الساعة الواحدة والنصف صباحًا، وانقطعت الأخبار بعد ذلك، وسقطت الطائرة وسط الحقول وتفحمت الجثث، وقد قرر الطبيب الشرعي الذي عاين جثة كاميليا أن سبب الوفاة كان الجروح النارية وما صاحبها من صدمة عصبية وكسور في عظام الساقين..

أما أغرب ما في الحادث فهو أنهم لم يجدوا شيئًا من متعلقاتها سوى خاتم سوليتير قيل إنه مُهدى لها من شخصية حاكمة – على الأرجح هو الملك فاروق نفسه الذي اتهموه بتدبير الحادث – والشيء الثاني هو "فردة حذاء" من البستان الأخضر بلون الفستان الذي كانت ترتديه..!

فمَن دبّر الحادث؟

مَن قتل كاميليا؟

ما هي انتماءاتها؟

هل حقًّا كانت على صلة بالوكالة اليهودية؟

أم كانت مسيحية متدينة كما يزعم البعض؟

هل كانت عميلة للموساد؟

هل أحبت مصر التي شربت من نيلها وأعطتها الشهرة؟

ماذا كانت تريد بالضبط؟

أسئلة عديدة ماتت إجاباتها عند لحظة احتراقها مع حطام الطائرة..

4

برلنتي عبد الحميد والزواج من المشير

(وبعـد سـاعة دق جـرس الباب ودخل رجلان، ودارا في أنحـاء الشقة يتفحصانها، يدرسان: مداخلها ومخارجها، بينـما جلـست هي و[الكاتبة] في انتظار الشخصية المجهولة المثـيرة، والـسيدة برلنتـي فاتهـا أن تـصف شعورها في هذه اللحظات....)

ولدت بحي باب الشعرية المزدحم في بيت كان يعيش فيه الأب والأم إلى جوار الجد، إلى أن انتقلت الأسرة – وهي في الرابعة من عمرها – إلى حي شعبي آخر لا يقل ازدحامًا هو حي السيدة زينب – ﷺ – وبعيدًا عن منزل الجد الذي كان والدها ابنه الوحيد.

ووسط الأماكن المزدحمة كثيرًا ما يبحث أصحاب الطموح عن التميز وإثبات الذات.

كـان جدها أحد كبار المتصوفة واسمه الشيخ محمد حسن علي حواس، وكان من مشايخ الطـرق الخليلـية، وحـسب مـا تذْكـر السيدة "نفيسة" التي اشتهرت في الفن والمجتمع باسم "برلنتي" فإن جدها له مقام في جامع سيدي "الطشطوشي" في حي باب الشعرية.

والطـريف أنهـا تقـول إنهـا فهمت من جدها "أن الرجل المسلم هو "الجنتلمان" الحقيقي بالمعنـى الـسائد في هـذا العـصر، والطريف هنا هو لفظ "الجنتلمان"، وهو لفظ شديد الحداثة و"الفرنجة" إن صح التعبير!

وفي حـي الـسيدة عـرفتْ "عقـولاً شـامخة، وأناسًـا ذوي عقول منحطّة، وعرفتْ الجوع والشبع، والفقر والغنى، وعرفت التحدي والتسليم"..

والحقـيقة أن تعبـيرات الـسيدة برلنتـي تـنمّ عن أحاسيس وتجارب اختارت لها الألفاظ الدقـيقة والصريحة، التي تعبر عن حالة الزحام التي تكون عليها الأحياء الشعبية، فالاختلاط هو السمة الواضحة في هذه المجتمعات.. اختلاط القيم الأصيلة التي تمثل وضوح المنازل من الأعـماق أمـام المـارة في شـمس الـنهار، بـبعض الفساد الذي تشهده الحارة في ظلمات الأزِقّة والطرقات.

في هـذا الحي تعرفت السيدة برلنتي على طبيب شاب كان يسكن في البيت المقابل لمسكن أسرتهـا، كـان فتـيًّا وسيمًا، رأته ذات يوم محمولاً على الأعناق بسبب إدمانه المفاجئ للخمور! وكان هذا سببًا كافيًا – فيما تذكر – لابتعادها عن الخمر طوال حياتها.

وفي أول كشف من جانبها عن تطلعاتها المشروعة، كان في إطار بحثها عن مدرس يساعدها في فهم الدروس المدرسية، وتطوع ابن خالتها فرشح لها موظفًا في مصلحة البريد حاصل على ماجستير في العلوم السياسية والمالية، وقال لها: إن عمه هو "محمد حسين هيكل باشا"، ورغم ما سبق وأعلنته من كرهها للخمر فإنها علّقت على ذلك الترشيح قائلة: "أسكرتني هذه الصفة فيه.."، وتضيف بعد ذلك قائلة:

"كان عالم الباشوات بالنسبة لي عالمًا أسطوريًّا، وأن يدخل رجل من هذا العالم إلى بيتنا أمر يهز الوجدان".

وربما تكون لهذه العبارة دلالتها في فهم ميل السيدة برلنتي المبكر إلى عالم السلطة والنفوذ بما تمثله "الباشوية" المسكرة إلى هذا الحد.

ثم تحكي بعد ذلك عن مدى اهتمامها بهندامها، وزينتها، وبنظافة حجرة الجلوس ومدخل الشقة انتظارًا للمدرس قريب الباشا!

ولكن الغريب – رغم كل هذا الاستعداد السابق – تقول: إنها استقبلته بثياب ممزقة بالية، وأنها صافحته وهي في حالة يرثى لها، وأنها تقدمت وهي حافية القدمين، مبللة الوجه بالعرق (تمامًا كما يحدث في بعض الأفلام العربية، ولكنها لم تجده كما تخيلته فارع الطول، بالغ الأناقة والوسامة، بل كان رجلاً في ثياب عادية، قصير القامة، ضامر الجسم.. كان هذا الشاب "مصطفى هيكل"، كما اكتشفت بعد ذلك أنه واسع الاطلاع، عظيم الثقافة، باختصار حرك هذا الشاب عقلها وقلبها، وبدأت ترِد على ذهنها أسئلة دينية فلسفية، جاء في مقدمتها سؤال "مَن هو الله" سبحانه وتعالى؟

وهو السؤال الذي لم تُلْقِه على مصطفى هيكل، بل انتهزت فرصة وجود جدها في زيارة لهم، ثم وهي تدعك قدميه نظير قرش لكل قدم، سألته، فقال لها بكل خشوع الحديث القدسي: "كنتُ كَنزًا مخفيًّا فأردتُ أن أعرَف فخَلقتُ الخَلقَ فيه فعرفوني".

واستمرت العلاقة بين السيدة برلنتي وبين مصطفى هيكل الذي بدأ يمدّها بالكتب لتقرأها ثم يتناقشان فيها في لقاءاتها المتعددة في حديقة الأزبكية، ورغم أن المكان رومانسي إلا أن المقابلات كانت ثقافية.

وتذكر أنها قرأتْ بعض أعمال كارل ماركس (ومنها كتابه الشهير رأس المال) وأنجلز، وأكثر الكتب التي أثارت اهتمامها كتاب "الأم" لمكسيم جوركي.

والحقيقة أن السيدة برلنتي تقفز من هذه الذكرى إلى واقعة تذكرها في شجاعة نادرة، عندما سألها المشير عامر - بعد زواجها فيما بعد - وهي تتحدث عن هذه الكتب متباهية بقراءتها:

- "هل قرأت القرآن؟".

- فتقول واصفة تَلقّيها للسؤال: ولا أدرى لماذا انتابني الخجل وأنا أردّ عليه بالنفي"، فألقى سؤالاً آخر: لعلك أيضًا لم تقرئى شيئًا عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؟

فأجابت بما يفيد النفي.. وحاول مصطفى هيكل إشراكها في عملية توزيع المنشورات، إلا أن ارتباكها حال دون استمرارها في العمل السري، فأشار عليها بدخول المعهد العالي للفنون المسرحية قسم "نقد"، وهناك رآها المرحوم زكي طليمات الذي حوّل اتجاهها إلى قسم التمثيل، و(بالصدفة) غابت البطلة التي ستقوم بدور البطولة أمام عبد الغني قمر (الطالب وقتها) في امتحانات السنة النهائية، واختار زكي طليمات السيدة برلنتي لتقوم بالدور إنقاذًا للموقف، و(للصدفة) كان المشهد الأول في ديكور غرفة نوم وبملابس إغراء - إلى حد ما - فهاج الطلاب - الشباب - وعلت أصواتهم بالصفير، وشاعت بعض الفوضى، وأغلق الستار، ليهدد زكي طليمات (عميد المعهد وقتها) بإلغاء العرض إن عادوا إلى الصياح. وفتح الستار مرة أخرى بعد أن أصبحت أعصاب السيدة برلنتي "أهدأ" مما ساعدها على الاندماج - على حد تعبيرها.

وعن ذلك الموقف تقول في مذكراتها "وزاد من سروري أن الأستاذ زكي هنأني وامتدح تمثيلي، وأحسست بالزهو؛ فإنها أول مرة أحظى فيها بالتقدير الجماهيري، وهذه نشوة لا يعرفها سوى من ذاق حلاوتها..".

وبدأ نجمها في الصعود بسرعة الصاروخ، لدرجة أنها حصلت على بطولات سينمائية وهي لازالت طالبة بالمعهد. وبعد الشهرة أصبح لها أصدقاء متميزون من الصحفيين والمثقفين والكتّاب، فكانت تعقد لهم صالونًا أسبوعيًا - كل خميس - في بيتها، وكان من بين المترددين على هذه الندوات: أحمد بهاء الدين، أنيس منصور، الصحفية الراحلة نجاح عمر، وزوجها الكاتب الصحفي محمود المراغي، الكاتب والفنان عدلي فهيم، الرسام حجازي والصحفية مهجة عثمان، وكثيرون ممن تفخر الحياة الثقافية بهم (ص٢٦ من كتاب المشير وأنا).

واتسعت دائرة معارفها لتضم الأجانب من الفنانين والفنيين، وتلبية دعوات السفارات، إلى أن حدثت لها هذه الواقعة:

كانت مدعوة إلى حفل أقامه سفير الهند في منزله بالزمالك تكريمًا لقنصل أمريكا في القاهرة، ولضيق الوقت فقد ذهبت إلى الحفل بماكياج دورها في أحد الأفلام، وصادف ذلك ترحيبًا من الأجانب حتى إنهم هللوا لها:

"هالو.. برلنتي عبد النيل"!

وبينما الكل يتزاحم من حولها، إذا برجل يقترب منها هامسًا: أنا فلان الفلاني (مخابرات)!

ولأنها لم ترد لنفسها أن تكون في موضع شبهة من هذه الطريقة الهامسة، وخاصة أن بعض الأجانب الحاضرين يلمون باللغة العربية، فما كان منها إلا أن صاحت باللغة الإنجليزية: وما شأني أنا بالمخابرات.. إنني فلانة ولا دخل لي بالسياسة"!

وانتهت الحفلة، وبعد عودتها إلى البيت مباشرة، تلقت مكالمة هاتفية من صوت رجل رقيق مهذب – على حد وصفها – يقول أنا "صلاح بدر مدير المخابرات الحربية، وطلب منها – بعد أن وصفها بالوطنية – أن تكتب "تقارير" عن أي شيء تسمعه أثناء وجودها مع رجال السلك الدبلوماسي.

إلا أنها رفضت، فاستأذنها في أن يعاود الاتصال بها مرة أخرى، فرحبت بذلك. وهنا تقرر السيدة برلنتي أنها كانت المرة الأولى التي تتعرف فيها على رجل مخابرات، وأنها اندهشت لكون رجل المخابرات الذي تعرفت عليه في تلك الليلة "رجل رقيق خجول"، وكان الرجل هو (صلاح بدر) مدير المخابرات الحربية!

ولكن يبدو أن شخصية السيدة برلنتي عبد الحميد، التي أطلق عليها الأجانب لقب "برلنتي عبد النيل" – كما تقول – كانت شخصية رأت فيها المخابرات نموذجًا من طراز ممتاز للاستفادة من علاقاتها الواسعة لا سيما بالأجانب.

فها هي تتلقى عرضًا آخر بعد أيام من المكالمة السابقة، تطلب منها محدثتها التي تصفها "بالكاتبة الدينية المعروفة" أن تستقبل شخصًا يريد زيارتها.

- وعندما سألتها: ومن هو؟

- قالت إنه شخصية مهمة، أحد المسئولين، فما رأيك؟

- ولماذا يريد أن يزورني؟

- لا أعرف، هو بنفسه سوف يخبرك إذا وافقتِ على الزيارة.

- قلت في النهاية: "لا مانع، فليتفضل"، ثم عادت الكاتبة تسأل: هل لديكِ مانع أن آتي معه.

- أبدًا أهلاً وسهلاً (ص٢٩ من المصدر نفسه).

وبعد ساعة دقّ جرس الباب، ودخل رجلان ودارا في أنحاء الشقة يتفحصانها، يدرسان مداخلها ومخارجها، بينما جلست هي و"الكاتبة" في انتظار الشخصية المجهولة المثيرة، والسيدة برلنتي فاتها أن تصف شعورها في هذه اللحظات.. هل هو الرعب، أم الانتظار والترقب، أم بعض الاستمتاع بهذا الجو المثير الذي يشبه المشاهد المتقنة في فيلم من أفلام الجاسوسية التي لم تكن قد عرفتها السينما المصرية هذا الوقت؟

ولم يمضِ وقت طويل حتى دق جرس الباب مرة أخرى، وظهر رجل ممتلئ قليلاً مبتسم الوجه، وبعد الترحيب به أعدّت له السيدة برلنتي الشاي بنفسها بعد انصراف الشغالة، وبدأ الرجل في الدخول إلى الموضوع مباشرة، ومن الأفضل أن نقرأه بنفس ألفاظ وعبارات السيدة برلنتي:

- نحن نعرف يا مدام برلنتي أنك نجمة محبوبة، وأن كثيرًا من الأجانب المهمين المقيمين في مصر يحبونك ويصادقونك، ويهمنا حقًّا أن تتعاوني معنا.

- سألته: ومين حضرتك..؟

- بدت الدهشة على وجهه، ثم تساءل بأدب: ألا تعرفين صلاح نصر؟

- لا.. لا أعرفه.. يعني بتشتغل إيه حضرتك؟

ضحك الرجل وهو يتفرس في وجهي غير مصدق ثم قال: صلاح نصر مدير المخابرات.

- ولكن مدير المخابرات اسمه صلاح بدر!!

- قـال: صـلاح بدر مدير المخابرات الحربية.. لكن أنا مدير المخابرات العامة ثم أوضح لهـا أن عمل المخابرات العامة ينحصر في نطاق الأجانب، ومكافحة شبكات الجاسوسية التي تـستهدف الإضرار بمـصلحة الـوطن، ثم كرر طلب "صلاح بدر" نفسه وهو كتابة "تقارير" عن كل ما تسمعه أو تستشعره من الأجانب، وكيف يفكرون، ثم أضاف إن ذلك لن يستغرق منها أكثر من دقائق!

وألقـى صـلاح نصر بمهارة بأول إغراء أمامها، عندما دار نظره في أرجاء الشقة الصغيرة قائلاً: هذه الشقة صغيرة، ولا تناسبك.. سوف نعطيك شقة كبيرة، ونؤثثها لك بشكل فاخر!

وعندما أبدتْ رفضها، ألقى بالطعم الثاني:

- سـتكونين في أمـانٍ تحت رعايتنا، وإذا حدث وتهددك أي خطر فنحن سنقوم بحمايتك منه، فإنك لن تدركي إن كان هناك خطر أم لا.

وهـذا هـو مـا تـستطيع أن تقدمـه الـسلطة، إنها تَعِد بالحماية، وحتى لو لم تَعِدْ بذلك فإن الـذين يـتطلعون إلى علاقـات خاصـة مـع الـسلطة، يدركـون أن ذلـك بالنـسبة لهم من أكبر المغريات، إنها "حصانة" من نوع خاص، تفوق تلك الحصانة الممنوحة لبعض أعضاء الهيئات البرلمانـية والدبلوماسية، فهي حصانة مستترة إن صحّ التعبير، حصانة غير مرئية تتيح للمتمتع بها نفوذًا يفوق قدراته، ويفوق وضعه ومكانته الطبيعية، وهذه - في رأينا - هي نقطة الضعف الأول التي ينفذ منها القائمون على (تجنيد) مثل هذه العناصر.

وتـؤكد السيدة برلنتي عبد الحميد أنها رفضت العرض - من أساسه - بدعوى أنها تخدم وطنها عن طريق الفن، وأنها لا تعرف السياسة.

في حـين قـرر صلاح نصر أن المسألة ترجع إلى اختيارها، وأنه شرح المميزات وعليها هي أن تختار، ثم طلب السماح له بالاتصال بها من وقت لآخر حسبما روت هي.

ولكن، ما رأيكم أن نسمع الرواية بشكل آخر وبنهاية أخرى من المهندس حلمي السعيد الـذي كـان عـلى رأس فـريق التحقـيق في القـضية التي اشتهرت باسم "قضية انحراف جهاز المخابـرات العامـة"، الذي يؤكد في مذكراته أن السيدة "نون" وشهرتها الفنية "باء" وللقارئ

الذكي وحده حق اكتشاف إذا كان هناك تشابه بين نون والسيدة برلنتي التي كانت على علاقة بأحد قيادات الجهاز، وكان لها أصدقاء أجانب، وأنها قد وقّعت إقرارًا عام ١٩٦٠ لتكون مندوبة للمخابرات.. وأن جميع زملائها في الوسط الفني يعلمون علاقتها بالمخابرات وبقياداته.

والحقيقة أن المرء يتحير أي الروايات يصدق؛ فصحيح أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة، ولا من خلال وجهة نظر واحدة، إلا أن هذا التضارب في الروايات يباعد بيننا وبين الحقيقة، ولو مؤقتًا!

هذا إذا كان هناك ربط بين السيدة نون والسيدة برلنتي(!)

الشق الثاني في حياة السيدة برلنتي بالسلطة هو علاقتها بالمشير الراحل عبد الحكيم عامر، الرجل الثاني بعد عبد الناصر في هذه الفترة، ورغم أن حلمي السعيد يشير إلى أن المخابرات العامة هي التي قدمتها إلى المشير (هو لم يذكره بالاسم) في عام ١٩٦٢ في إحدى الفيلات الآمنة، في حجرة معتمة، ولما قامت هذه الشخصية (المشير) بإشعال سيجارة عرفته السيدة (نون) الشهيرة بـ(باء)، إلا أنها تذكر الواقعة بشكل مختلف، فقد سبق هذا اللقاء، لقاء آخر لمجموعة كانت وظيفتها تعريف "اللي فوق بمتاعب وأوجاع اللي تحت"! ولا ندري.. هل هذا هو دور "مخابراتي" مثلاً؟ ورغم ذلك فإن السيدة برلنتي تقول: إنها وافقت على الذهاب لذلك الاجتماع الذي دعتها إليه صديقة صحفية تعمل في مجلة روز اليوسف وقتها، ولسبب أو لآخر اهتمت السيدة برلنتي بزينتها واختارت اللون الأبيض لملابسها، وحذاءً ذا كعب منخفض، وتسريحة شعر جعلتها تبدو كطالبة أنيقة ورشيقة!

وفي الاجتماع الذي تم في إحدى الفيللات في الهرم، التقت لأول مرة بالمشير عبد الحكيم عامر الذي رأس الاجتماع لمعرفة أحوال الرعية من خلال هذه المجموعة المنتقاة التي تجمع بين أبناء مهن ووظائف مختلفة.

وبعدها اتصل بها صلاح نصر مرة أخرى وذهب بها لمقابلة "شخصيات مهمة"، وعندما أصرّت على معرفة هذه الشخصية قبل ذهابها، أخبرها بأنه المشير عامر، بشرط أن تتظاهر أمامه بعدم معرفتها به، وهناك في المكان المظلم أخرجت هي سيجارة، وبعفوية أخرج المشير ولاعته فأشعلها لها، فقالت له: إنه يشبه المشير عامر، فضحك ولم ينكر.

وتحدثت بعد ذلك السيدة برلنتي عن (اختبارات) عديدة وقالت: إن (أجهزة الأمن) قامت بها تجاهها بمباركة المشير، وتمثلت هذه الاختبارات في عروض زواج وعروض تمثيل ومعاكسات بالذهب والمال، وفي النهاية قال لها المشير إنها نجحت في الامتحان وإنها الآن أصبحت (عروسته) بعدما تأكد من أنه سيضع رقبته ومعها أسرار الدولة مع امرأة لا تُشترى، بل إن صلاح نصر قال لها: إن المخابرات تعتبرك نظيفة، تليق بزوجة المشير (ص٥٦). وتم الزواج، زواج الفن بالسلطة، الذي يبدو أنه لم يكن زواجًا ورديًا بين (الفنانة) برلنتي والنائب الأول لرئيس الجمهورية وقائد جيشها؛ فقد كانت العيون متربصة، والمشير حريص – كل الحرص – على أن يكون أمر الزواج في أعماق بئر الأسرار.. أسرار الدولة، التي أصبحت الزوجة الجديدة شاهدة عيان على بعضها بحكم الوضع الجديد والمكان القريب.

لم تكن حياة وردية، لأنها كانت حياة شبه سرية إلا من بضعة أفراد شهدوا عليها وباركوها، ولكنهم اشتركوا جميعًا في دفن أسرارها.. إلى حين!

والغريب أن السيدة برلنتي تؤكد أن قمة السلطة وقتها – متمثلة في الزعيم جمال عبد الناصر – كانت على علم بعلاقة الزواج السري بينها وبين المشير، وأنه قد زارهما في بيتهما ببرج العرب (الإسكندرية)، وأنه لعب الورق مع المشير – في حضور ومشاركة أنور السادات – وهي تجلس بالقرب من المشير، وهو ما يعني – إن صحّت الواقعة – مباركة عبد الناصر لهذه العلاقة.

وتداخلت دوائر السياسة والسلطة، ربما كان (الطموح) هو مركز إحدى هذه الدوائر، ولكن للأسف فإن النتيجة التي نراها من هذا التداخل، هي احتراق الفنان بفعل لهيب السياسة، فلا هو حقق طموحه في الشهرة والنجومية، ولا هو تخلص من السهام الصائبة التي تصوب إليه كلما دار حديث في الفن أو في السياسة!

5

ميادة الحناوي: غيرة أم تجسس؟!

(وهـذه واحـدة مـن القضايا التي شغلت الرأي العام، كانـت واحدة من همسات الوسطين الفني والصحفي لفترة طـويلة، حتـى خـرجت من طي الكتمان المؤقت وأصبحت حديث الناس، بعد أن تجرأت أخيرًا الصحف وناقشتها على المـلأ وعـبر صفحاتها.. إنها قضية المطربة ميادة الحناوي مع الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهي من ناحية أخرى لا تخلو من حديث عن الفن و.. المخابرات والسلطة!)

ميادة الحناوي من مواليد حلب عام ١٩٥٨، كانت بدايتها من خلال المسرح المدرسي، وبدأت قصة تعارفها بالموسيقار محمد عبد الوهاب عندما التقت به في فندق "بودان"، فاستمع منها مقتطفات، فنصحها بالسفر إلى القاهرة وكان ذلك عام ١٩٧٧، وصحيح أن بدايتها الفنية الحقيقية كانت مع آخرين وأولهم الموسيقار محمد الموجي، الذي استمع إليها في دمشق بعد قرار ترحيلها المفاجئ من القاهرة، وقال الموجي عن صوتها إنه صوت سليم وطروب، ثم ذهب بليغ حمدي أيضًا إلى دمشق وقدم لها لحنًا لأغنية "إيه يا هوى"، وكذلك، ورغم مرض الموسيقار الكبير الراحل رياض السنباطي، فقد وضع لها لحنًا نفّذته في دمشق، وهكذا ورغم أن الخطوة الأولى كانت مع محمد عبد الوهاب، إلا أن الانطلاقة كانت من دمشق. ولكن ما يهمنا هنا هو التوقف أمام حقيقة العلاقة مع محمد عبد الوهاب الذي من الواضح أنه كان أحد أسباب قرار ترحيلها من مصر، كما أن تلك العلاقة تلقي الضوء على أشياء كثيرة في حياة ميادة الحناوي الفنية والشخصية.

عندما وجه الموسيقار عبد الوهاب الدعوة إلى ميادة الحناوي – وهي لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها – لزيارة القاهرة، وجدت ميادة التي كانت لها شقيقة أكبر تغني تدعى فاتن في هذه الدعوة الفرصة لتحقيق طموحاتها في عالم الفن، فحزمت حقائبها على الفور مصطحبة والدتها وشقيقها "عثمان" ورحلت إلى القاهرة..

وفي مطار القاهرة كان في استقبال ميادة وأسرتها مجدي العمروسي محامي شركة صوت الفن وأحد شركائها، وبعد فترة توقفت السيارة التي تقلها أمام عمارة أنيقة بحي الزمالك الراقي، وكانت في انتظارهما بالشقة خادمة وسائق خاص بناء على طلب من موسيقار الأجيال.

وأمام الباب – باب الشقة – سلّم مجدي العمروسي مفتاح الشقة إلى ميادة ومعه قصاصة ورق عليها رقم تليفونه وتليفون الأستاذ (عبد الوهاب) قائلاً لها: أنا تحت أمركم في أي وقت تحتاجون إلى معونة..

وفي اللحظة نفسها رنّ جرس الهاتف، لتستقبل ميادة أول مكالمة من عبد الوهاب، فقالت: إنتَ تَعَبْت نفْسَك معايا قوي يا أستاذ!

- العفو يا هانم.. ده أقل واجب أقدر أقدمه لنجمتنا الجديدة.

ميادة: ربنا يخليك يا أستاذ..

عبد الوهاب: ميرثي يا فندم.. وإذا عايزين أي شيء أبعث لكم السواق بتاعي.

ميادة: لكن ده كثير يا أستاذ..

الأستاذ: أبدًا يا فندم.. إنتم معزومين على العشاء الليلة.. وعلى مائدة الأستاذ العامرة اجتمعت الأسرتان؛ أسرة عبد الوهاب، وأسرة ميادة الحناوي، وبعد العشاء الفاخر أعطاها عبد الوهاب الدرس، قائلاً: دلوقتي لازم تروّحي تنامي بدري علشان تصحي بدري أيضًا، وكمان لازم تعملي رياضة في الصباح.. الشيء الثاني أنا مش عايزك تروحي أي مكان إلا إذا ادتيني خبر.. اتفقنا؟

وعند الجملة الأخيرة نتوقف، ونتساءل: هل هو اهتمام مبالَغ فيه مِن قِبَل الأستاذ تجاه نجمته الساعدة؟ أم هي غيرة فنية خوفًا من تعاونها مع أحد غيره؟

لكن المؤكد في كل الأحوال أن هناك رعاية خاصة من جانب الأستاذ تجاه ميادة باعتبارها (مشروعه) الجديد، وعبد الوهاب عُرِف عنه الاستثمار الجيد لعلاقاته الفنية؛ من أجل أن تضيف إليه ولا تأخذ من رصيده إلا إذا كان العائد أكبر.

ولذلك أصرّ عبد الوهاب على توقيع عقد احتكار لمدة خمس سنوات مع اكتشافه الجديد، تكون خلالها "صوت الفن" هي المنتجة الوحيدة لأغانيها.

ورغم أن عبد الوهاب قد طلب من ميادة وأسرتها عدم الاتصال بالصحفيين أو الرد على أسئلتهم، إلا أن الأخبار بدأت تتسرب إلى الصحف الفنية المعروف عنها اهتمامها بأخبار الفن والمجتمع، وكان واضحًا من الخبر الأول الذي نشر عن الصوت الجديد "ميادة" أنه يحمل نوعًا من "الدعاية" لاكتشاف الأستاذ الجديد، وجاء في الخبر الذي نُشر بمباركة الأستاذ، تحت عنوان "عبد الوهاب يكتشف مطربة سورية": "اكتشف الموسيقار الكبير عبد الوهاب صوتًا نسائيًّا غنائيًّا نال إعجابه الشديد، وقال بعد أن استمع إلى صاحبته وهي تغني في حفلة

خاصة إنها مطربة على قدر كبير من الموهبة، وإنها لو احترفت الغناء لكانت من أبرز المطربات العربيات..

وصاحبة الصوت الجميل الشجيّ اسمها ميادة الحناوي، وهي حلبية الأصل، وشقيقة المطربة السورية المعروفة فاتن الحناوي التي فازت بإحدى جوائز مهرجان الأغنية العربية الذي أقيم في دمشق خلال الصيف الماضي (عام ١٩٧٦)..

وأضاف الخبر أن العقبة الوحيدة التي تقف في وجه ظهور ميادة الحناوي هي أنها لا تحب أن تكون مغنية محترفة، وتفضل أن تظل هاوية غناء فقط، وإن كانت السيدة أمها تؤكد أن ابنتها كانت تقول لها منذ طفولتها إنها على استعداد لأن تحترف الغناء، إذا لحّن لها أغانيها أو بعضها الموسيقار محمد عبد الوهاب..

ووصفها الخبر على النحو التالي "وبقي أن نذكر أن ميادة الحناوي تجمع بين جمال الصوت والأداء، وجمال الشكل أيضًا، وهو ما لم يتوفر إلا للقليلات من المطربات العربيات.. (الموعد ١٩/ ١٠/ ١٩٧٧).

ومن الواضح أن الطريق كان يمهد لبزوغ نجمة جديدة في عالم الغناء، فماذا حدث بعدها؟

حتى ندرك ماذا حدث بعد ذلك علينا أن نبرز قصة تعارف ميادة الحناوي بمحمد عبد الوهاب، ففي البداية كانت شقيقتها فاتن الحناوي مطربة معروفة في حلب، ثم في سوريا كلها بعد انتقالها إلى دمشق وغنائها في الإذاعة والتليفزيون السوريين، وكان من بين أصدقاء الأسرة السيد "عدنان الدباغ" الذي كان وقتها وزيرًا لداخلية سوريا، وهو عاشق للفن، فاستمع إلى ميادة بطبيعة علاقته بالأسرة، فتحمس لها، وكان في الوقت ذاته صديق حميم لمحمد عبد الوهاب، وكان يعلم بالطبع بمكان اصطياف عبد الوهاب في منطقة "بحمدون"، ولكن الحرب الأهلية نشبت في ذلك الوقت، وارتفع صوت المدافع، وعبد الوهاب بطبعه القلق، الوسواس، لا يطيق صوت المدافع ولا يحب سيرة الحرب، فانتهز السيد عدنان الدباغ الفرصة ودعاه لقضاء بقية أيام المصيف في "بلودان" المصيف الهادئ الآمن، وعندما لبى عبد الوهاب الدعوة، وأخبر الدباغ عائلة ميادة، هتفت ميادة على الفور: نفسي أقابله مرة! وافقت الأسرة، وباركت رغبة ابنتها في لقاء الأستاذ، وفي مكان إقامة الأستاذ، استمع إليها الأخير

وهـي تغني بعض مقاطع لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وبعض أغنيات سورية من فولكلور طـروب، وبعـض ألـوان من الغناء اللبناني، كل هذا والموسيقار يبدي إعجابًا حقيقيًّا يزيد من حرارته ميل الأستاذ إلى المبالغة في المجاملة.

سأله الدباغ في نهاية الغناء: إيه رأي الأستاذ؟

- صوت جميل.. محتاج شوية تدريب وزخرفة..

* هل تمنحها شرف التدريب على يديك؟

- لكن.. دى مسألة تأخذ وقت.. مش في يوم وليلة.

ومن هنا جاءت فكرة سفر ميادة إلى القاهرة واستضافة عبد الوهاب لها.

ورغـم التكـتم الـشديد الـذي كـان يـتعامل به عبد الوهاب مع الصحافة؛ حتى تكتمل مفاجأتـه، إلا أن عـبد الـوهاب كـان يعدّ الصالونات الثقافية والفكرية لصوته الجديد؛ بهدف الارتقـاء بهـا ثقافـيًّا مـن ناحية، ومن ناحية أخرى أن يقدمها إلى صفوة المجتمع بهدف تحقيق الإجماع حول صوتها..

وفي صالون عبد الوهاب التقت ميادة بصفوة من أهل السياسة والفكر: مصطفى خليل، سـيد مرعـى، مصطفى أمين، محمد عبد القادر حاتم، إحسان عبد القدوس وآخرون، وبدأت الأخبار تتسرب عن اللحن الذي يعدّه عبد الوهاب لميادة وهو "في يوم وليلة" كلمات الشاعر الغنائـي الكبـير حـسين الـسيد، بـل وأن مـيادة تسجل اللحن بالفعل بصوتها بمصاحبة عود الأستاذ، وفجأة..

طـارت مـيادة إلى دمـشق، وكـان الخـبر المعلـن أنهـا ذهبت لتتابع حالة والدها المريض، ولكن..

بـدون مقـدمات أيضًا بدأ الأستاذ يصرّح بأن ميادة "صوت غير ناضج"، وأنها ليست في مستوى لحنه!

وكان هذا يتنافى مع تصريحاته السابقة!

واشتعلت ميادة غضبًا، حتى ولو لم يكن التصريح مفاجئًا لها!

وبدأ خبر مثير للتقزز ينتشر في أوساط بعينها، يتحرك ببطء ولكنه كان ينتشر رويدًا، رويدًا، انتشار النار في الهشيم.. الخبر يقول: إن ميادة قد تم ترحيلها بسبب خطرها على الأمن القومي المصري، ثم راح يظهر في جرأة أكبر ليعلن أنها "جاسوسة ضد مصر، وأن عملها هو جمع المعلومات السرية من أفواه مصادر معينة سياسية وفنية..."!

هكذا بمنتهى البساطة، البنت الصغيرة التي لم تكمل عامها السابع عشر.. عميلة مخابرات!

وتتكشف الأمور أكثر أن القرار صادر من وزير الداخلية المصري اللواء نبوي إسماعيل، وأنه جرى استجواب لميادة في مطار القاهرة قبل ترحيلها!

ولم يعرف الناس شيئًا عن حقيقة علاقة ميادة الحناوي بالتخابر، حتى تم تجنيدها، ولا ما هي طبيعة المعلومات التي جاءت من أجلها في فترة شهدت توترًا شديدًا في العلاقات بين مصر وسوريا، ولا ما هي الأخبار التي تمكنت بالفعل من الحصول عليها أو مصادرها في القاهرة التي تعاملت معها... وإلى هنا لم تكن أية كلمة تقال عن دور عبد الوهاب فيما حدث!

إلى أن تطورت الشائعات وربطت بين قرار الترحيل وبين غيرة زوجية شعرت بها زوجة عبد الوهاب تجاه النجمة الجديدة، فكانت سببًا في منعها من الغناء "في يوم وليلة".. أين الحقيقة؟ لا أحد يعرف حتى الآن..

وتمر السنوات، ولأن الحقيقة لا تموت، وعندما تغيب الحقائق فإن الشائعات تولد، فبعد نحو ٢٢ عامًا من قرار الترحيل والشائعات التي تناثرت من حوله، ورغم أنه سبق ذلك بتسع سنوات أن دعيت ميادة الحناوي – من وزير الإعلام المصري – لزيارة مصر والغناء في أكبر مسارحها بمركز القاهرة للمؤتمرات، يعترف اللواء النبوي إسماعيل في أحد البرامج على شاشة محطة عربية فضائية بأنه كان وراء منع دخول ميادة إلى مصر.. ومزيد من التوضيح للقصة الشائكة التي تصادم فيها الفن مع السياسة (السلطة) قال اللواء النبوى إسماعيل للصحفي اللامع وائل الأبراشي (روز اليوسف ٢٧/٨/٩٩) إن القصة فيها بُعْد أمني وبُعْد إنساني وبُعْد فني، والذي حدث أن الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب طلب أن يلتقي به لأمر حساس ومهم، وأنه بمجرد أن دخل مكتبه اكتشف أن عينيه شديدة الاحمرار وقال وهو يوشك على البكاء (على حدّ وصْف وزير الداخلية الأسبق) إن السيدة نهلة القدسي سوف

تـتركه وتنفـصل عـنه لـو عـادت مـيادة الحـناوي إلى مـصر مرة أخرى، وأضاف الأستاذ: أنا حيتخرب بيتي لو ميادة الحناوي دخلت مصر، ولو نهلة سابتني لن أتحمل وسوف أموت.

ويمـضي اللـواء النـبوي إسماعيل في روايته قائلاً: إنه أخذ يبحث عن "قرار موضوعي" يستند إلى اعتبارات ومبنيّ على أساس، فكلّف ببحث وضع ميادة الحناوي في الملفات الأمنية، فقالـت التقاريـر إنها صديقة لشخصية سياسية سورية كبيرة، وإنها تعمل معه تحت ستار الفن للحصول على المعلومات المتعلقة ببعض الدول العربية وعلى رأسها مصر!

وهـنا يقفـز الـسؤال: هـل لـو لم يـبلغ عبد الوهاب بأن "بيته ها يتخرب بسبب ميادة".. كانت ستترك تمارس نشاطها "العدائى" داخل مصر؟

مجرد سؤال..

أكثـر مـن ذلـك قـال الوزير أنه تم تسجيل مكالمات لميادة مع شخص مصري تحصل منه عـلى أخـبار ومعلـومات، ووصـفت هـذه المكالمات بأنها مكالمات "مش طبيعية" تتعلق بأمن وأحوال مصر.. وأضاف: إن هذه أمور نفهمها نحن كرجال أمن".

بعد ذلك يقول الوزير: إنه شعر بالراحة، وأن ربنا "لم يكسفني"، وطلب عمل إجراءات منعها من دخول مصر.

ولكـن الغـريب أن وائـل الأبـراشي عـندما سـأل وزير الداخلية التالي للواء النبوي عن أسـباب اسـتمرار قـرار مـنع ميادة من دخول مصر في عهده أيضًا قال اللواء أبو باشا: "طلب الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب مقابلتي عام ١٩٨٢، وطلب مني منع ميادة الحناوي من دخـول مـصر – اسـتمرار المـنع – وقال لي: فيه جوانب فنية وشخصية وأمنية، وأن ميادة على اتـصال بـبعض الشخـصيات التـي لم تكن مواقفها واضحة، وأضاف أبو باشا: لّما يطلب عبد الـوهاب حاجـة زى كـده مـن الطبيعـي أن أقـف بجـواره، وفيه مواءمة أمنية وقومية في هذه القضية، لذلك أنا وافقت على استمرار منع دخولها".

ولم يعجـب هـذا الكـلام وائـل الأبراشي، وكتب مقالاً هاجم فيه المسئولين الذين منعوا المطربة السورية ميادة الحناوي لمجرد أن الموسيقار محمد عبد الوهاب طلب منهم ذلك.

والحقـيقة أن المرء ليتعجب من هذا المنطق؛ فهو يكشف الحالة التي نتناولها هنا وهي قضية الفـنان والـسلطة، فـيبدو أن الفـنان محتاج دومًا إلى السلطة لتدعمه وتقويه، في الفن وفي أمور

الحياة، ولكن عندما يصطدم فنانان كلاهما على علاقة بالسلطة وبالنفوذ، فإن قانون الطبيعة سينتصر، وستكون الغلبة لمن استند إلى القوة الأكبر..

إننا لا نظن أن دفاع الفنانة ميادة الحناوي عن نفسها يفيد كثيرًا في هذا المجال، فهي قد قالت كلامًا يبدو مقنعًا، وهو أنها إذا كانت متهمة بشيء فلماذا عادت وبهذه الدعوة الرفيعة المستوى؟! ولكن أخطر ما كشفت عنه ميادة الحناوي – في رأينا – هو أن المسئول السوري الكبير الذي اتهمت بالعمل لحسابه، كان زوجها – في السر – وأنها إذا كانت متهمة بالتخابر معه، فإن عبد الوهاب أيضًا كان على اتصال به بحكم صداقتهما.. ولكن لا يفوتنا أن نسأل: هل زواج ميادة من المسئول السوري الكبير – ونحن في سياق علاقة الفن بالسلطة – كانت من قبيل البحث عن دعم سلطوي، خاصة أنه من الواضح أن هذا المسئول هو الذي عرّفَها على الموسيقار محمد عبد الوهاب؟

أيضًا فإنه من الممكن أن تكون ميادة – أو جزء من قضيتها على الأقل – سببها الجو المكهرب في العلاقات بين دمشق والقاهرة في نهاية السبعينيات، وهو تصادم سلطتين على مستوى كان ضحيتها فنانة، كنوع من الرسائل الساخنة المتبادلة.

وهذا نموذج آخر للفنان عندما يستند إلى السلطة فتقوي من شأنه.

وإذا كان البعض قد أشاع أن المطربة وردة كانت وراء خروج ميادة الحناوي من مصر؛ لتفوز وردة بأغنية "في يوم وليلة"، وهو اللحن الذي كان قد وضعه محمد عبد الوهاب خصيصًا لميادة ليكون نافذتها في التعارف مع الجمهور المصري والعربي، واستند أصحاب هذا الرأي إلى المقولة القضائية المعروفة التي تنادي بالبحث عن المستفيد، إلا أن السيدة وردة الجزائرية نفت ذلك بشدة في المقابلة التليفزيونية التي أجرتها معها الفنانة صفاء أبو السعود، وكانت وردة مؤثرة عندما أقسمت عبر البرنامج بأنها حتى هذه اللحظة لا تعرف شيئًا عن الأسباب التي جعلت عبد الوهاب يمنع هذه الأغنية عن ميادة، ثم يمنحها لها – أي وردة – وأنها لم يخطر ببالها أن تسأله عن هذه الأسباب. وأضافت وردة أنها تعلم بالطبع أن أغنية "في يوم وليلة" كانت معدة لتغنيها زميلتها ميادة (التي أشادت وردة بصوتها) ولكنها تساءلت:

هل أنا أستطيع أن أقنع عبد الوهاب بكل ما يمثله من ذكاء وقوة بأن يجعل ميادة تغادر القاهرة كلها ليمنحني الغنوة؟!

مـن طريقة كلام وردة نستطيع أن نستبعد هذه الرواية، ولكننا مازلنا في حاجة لأن نسمع أطرافًا أخرى في هذه الواقعة التي تضاربت فيها مصالح الفن مع قوة السلطة.

ولكـن يبقـى الـسؤال قائمًا: ما هي المصلحة المشتركة، وعن أي شيء كان الدفاع أو حتى الهجوم؟

6

عبد الحليم حافظ.. ماذا أعطته السلطة؟!

(أي صدفة هذه التي كانت في انتظار هذا الفتى النحيل، أي صدفة تلك التي جعلت بدايته تتزامن مع بداية عصر جديد في مصر.. صحيح أن علاقة حليم وناصر لم تكن قد ولدت بعد، ولكن علاقة أكبر كانت قد بدأت .. إنها علاقة عهد جديد وأسلوب جديد..)

فقدَ حليم حضن أمه قبل أن يراها.. وعندما شبّ احتضنته مصر.. لم يعرف كلمة (أبي)، ولم تمهلـه الأقدار لأن يقولها ويحسّها.. وعندما نضج وجد نفسه ابنًا لكل المصريين، لدرجة أن احتضنه عبد الناصر زعيم الثورة نفسها.

افـتقد حلـيم وجـود (الحبيـبة)، فإذا به يصبح فتى أحلام كل الأجيال! فهل كان (اليتم) وعـذاب الحـرمان.. همـا الدافع – أو العامل المساعد – الذي ألقى بحليم في أحضان (ناصر) الذي كان بمثابة الأب البديل، لا الزعيم المغوار؟

ملاحظـة ينبغـي التوقف عندها وتحليلها من جانب المتخصصين، فقد كان اليتم سرًّا من أسرار جاذبية هذا الفتى الموعود بالعذاب.

وفـيما عـدا ذلـك فإن الفترة السياسية التي بزغ فيها نجم حليم، وما شهدته من تحولات سياسـية واجتماعـية واقتـصادية، سـاهمت – دون شـك – في صـناعة ظاهـرة العندليب؛ فقد وجـدت الـثورة منذ البداية في حليم الصوت المختلف الذي يمكنه أن يكون معبرًا عنها، وفي اعتقادنا أنه لو ظهر حليم قبل خمس سنوات فقط من تاريخ ظهوره ربما لم يكن قد صادف كل هـذا الـنجاح، ولكـن أيـضًا فـإن سر نجاح حليم هو عبقريته في أن يستوعب الدور المطلوب مـنه، حتـى إنه التحم بالثورة التحامًا كاملاً، ولكنه لم يكن مجرد "كورس" لصوت الثورة، بل كـان واحـدًا مـن الـضباط الأحـرار بغـير ملابـس عـسكرية أو رتبة قيادية، ففهم توجهاتهم واسـتوعبها جـيدًا، والأهـم أنـه آمـن بها، ثم ساعدته الظروف بمؤلفين عباقرة مثل: جاهين والأبنودى، وملحنين ثوريين مثل: الموجي وكمال الطويل.

ومـع شـعار "التغيـير" الـذي رفعـته الـثورة منذ البداية، كانت هناك حاجة في أن يكون للـثورة مطـربها وصـوتها الـذي يـنقل رؤاها وتوجهاتها إلى الناس، في وقت لم تكن الصحف تـصل فـيه بـدرجات كافـية إلى نسبة كبيرة من الجماهير، بخلاف ما للفن من جاذبية وتشويق وقـدرة عـلى التغلغل إلى النفوس، فوجدت الثورة في حليم نموذجًا لهذا التغيير، وهو ما يفسر

عدم اضطلاع مطرين كبار ومحبوبين وقتها بالقيام بهذا الدور، أمثال: عبد العزيز محمود، محمد قنديل، كارم محمود، أو عبد الغنى السيد...

لقد توحّد حليم مع الثورة التي استفادت منه في طرح شعاراتها، كما استفاد بالطبع من الثورة، بعد أن أصبحت أغانيه الوطنية جزءًا من حب الوطن.. إنها نوع مختلف من علاقة الفنان بالسلطة؛ فهي علاقة إيجابية تعتمد على العطاء المتبادل في حدود المسموح والمشروع، فلم يقدم حليم من جانبه إلا فنه، ولم تعطه السلطة من جانبها إلا رعايتها ومساندتها، وبعضًا من.. حمايتها!

في يوم فرح هدى ابنة جمال عبد الناصر، اقترب عبد الناصر من حليم وسأله: بتنام كويس يا حليم؟

قال حليم: أنام بمساعدة عقار "الموجادون".

انزعج عبد الناصر وقال لحليم: ولكن هذا العقار يجعل مَن يستخدمه عصبيًّا أثناء النهار.

هذا الحوار البسيط بين زعيم كبير كعبد الناصر وبين فنان يكشف مدى العلاقة الودية التي كانت بينهما، إنه حوار "أبوي" حميم، أشبه بالحوارات بين الأصدقاء وليس بين أحد الساسة ومواطن بدرجة فنان، ولكنه.. حليم.

لذلك عندما يغني حليم لناصر: "ولا يهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس، حواليك أشجع رجال"، أو "يا بركان الغضب يا موحد العرب"، فإنه لا يغني تملقًا، بل إيمانًا وتجديدًا للمبايعة التي وهبها حليم لناصر.

وعندما أعلن ناصر قراره بالتنحي، كان حليم أول مَن يخرج بعربته "البويك" برفقة صديقه الحميم كمال الطويل، ليصل إلى بيت ناصر بصعوبة بالغة؛ من أجل إثناء الزعيم عن قراره.

وحليم لم يكن يفعل ذلك نفاقًا أو رياءً، باختصار لأنه لم يفعله وحده، فقد كشف لي محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم، أن كوكب الشرق قد استقبلت خبر التنحي بصرخة مفزعة، بل وبأغنية تطالب فيها الزعيم بالعودة إلى قيادة شعبه، رغم أنها كانت لا تزال تعاني من حالة اكتئاب دخلت في دوامتها على إثر هزيمة ١٩٦٧ المريرة.

وعندما يمرض حليم يفاجئه ناصر بالزيارة في منزله ويرفض الجلوس في الصالون مثل الضيوف، ولكنه يسحب كرسيًّا ويجلس إلى جوار حليم الذي كان قد أصابه النزيف لأول مرة في حياته.

ولكن عبد الحليم لم تكن لديه الجرأة على أن يعامل ناصر بالمثل فيبادله الزيارة في منزله بمنشية البكري، ولا "كاريزمة" ناصر كانت تسمح للآخرين مهما كانت علاقته بهم لأن يتبسطوا معه أكثر من اللازم، فهو رجل دولة مهموم بقضايا وطنية وقومية، والوقت لديه محسوب ومحدود جدًّا، فها هو حليم يقول في لغة ذكية لناصر إنه اكتشف أن أهم شيئين في الدنيا لصحة الإنسان هما: المشي والنوم؟

قال ناصر وقد فطن إلى أن حليم يوجه له رسالة: وأمشي فين؟.. ده أنا لو مشيت شوية هتلاقي مكتبي ورايا!

هكذا كان ناصر مشغولاً ومهمومًا، ولا يمكن لحليم بحساسيته التي عرفت عنه أن يذهب إلى ناصر ويحكي له مشكلة تخصه، حتى عندما تعرَّض لمضايقات من جانب أحد رجال الأمن بخصوص علاقته بممثلة شابة معروفة، وجد حليم حرجًا كبيرًا في أن يذهب إلى منشية البكري ليحكي لناصر ما يتعرض له من مضايقات، بل ذهب إلى المشير عبد الحكيم عامر الذي كان يتبسط أكثر في علاقاته بالوسط الفني.

وفي رأينا أن موقف حليم في هذا الاتجاه كان يؤكد على ذكائه المعروف عنه، فالفنان يجب أن يعرف أن هناك خطوطًا وهمية فاصلة بينه وبين السلطة مهما كانت حميمية العلاقة بينهما، فالسلطة يجب أن تكون الداعية للفنان، وليس على الفنان أن يكون متلهفًا للقاء السلطة كلما تعرض لإحدى المشكلات.

ولكن ناصر لم يكن يبخل على حليم – ابن الثورة – بالسؤال، ففي فترة بعد الهزيمة، وكان حليم قد بدأ يعاني بشكل أوضح من مضاعفات المرض، اتصل ناصر بحليم قائلاً: أنا عبد الناصر..

- أهلاً يا ريس.

- حافظ على صحتك، ومن رأيي إنك تتجوز أحسن.

- حاضر يا فندم.

ضحك ناصر وقال لحليم: أنا مش بأمرك. الجواز مش بالأمر، لكن أنا بتمنى لك السعادة.

- متشكر قوي يا ريس.

وانتهت المكالمة السريعة، ولكن بعد أن شحنت حليم بالأمل والتحدي.

ولعل الرسالة التي كتبها حليم في رثاء الزعيم تكشف عن بعض طبيعة العلاقة بينهما: (روز اليوسف العدد ٣٣٧٧) وسوف يأتي نصّها فيما بعد.

مات ناصر، ولم يستطع حليم - لأسباب كثيرة - أن يحمل مبادئ ناصر على صوته كما قال في رثائه، ولكننا نستطيع أن نقول - مطمئنين - إن بعضًا من نفوذ حليم قد استمر في الجزء الذي شهده من المرحلة الساداتية، بل إنه بسبب المكانة الخاصة التي استطاع حليم أن يحتفظ لنفسه بها في بلاط السلطة الجديدة، فإنه قد نجح في أن يلعب دورًا مهمًّا في أزمة الكاتب مصطفى أمين، فاستطاع أن يوفر لمصطفى أمين إعاشة خمسة نجوم في معتقله، وبسبب هذا تمكن مصطفى من كتابة عدد من كتبه أثناء تلك الفترة، إلى أن تمكن حليم - في ظل ظروف مساعدة - بمكانته لدى الرئيس السادات، من لعب دور مهم للغاية في عملية الإفراج عن مصطفى أمين، وكتب حليم برقية إلى علي أمين من المطار - وكان على سفر - يهنئه فيها بخروج مصطفى أمين قال فيها: الأخ الأستاذ علي أمين. عمارة ليبون - الزمالك - القاهرة:

بعد محاولاتي الكثيرة للاتصال بكم، أكتب لكم من مطار القاهرة في طريقي إلى لندن. أهنئ نفسي قبلك. ألف مبروك. ألف قبلة إلى الحبيب مصطفى.

وإلى اللقاء. عبد الحليم حافظ..

ارتبط حليم بالثورة منذ العام الأول لميلادها، بل إن ميلاده الفني الفعلي جاء بعد ساعة واحدة من إعلان الجمهورية في مصر وسقوط دولة الملكية. وقصة ذلك أن السيد وجيه أباظة مدير الشئون العامة للقوات المسلحة وقتها، وهي التي كانت تشرف على احتفالات عيد الثورة الأول، التقى بحليم، ولمّا استمع إليه قال له إنه سيقدمه في حفل حديقة الأندلس إلى جانب فريد الأطرش، وشادية، وعبد العزيز محمود، ومحمد فوزي، وكارم محمود، فخفق قلب حليم خوفًا، واختلطت بداخله مشاعر الفرح بالقلق! وفي الليلة المحددة، وفي تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، كان حليم يشكو لمقدم الحفل الداخلي وكان ليلتها هو الفنان

يوسف وهبي مِن تأخر ظهوره على المسرح، وفجأة تم الإعلان عن خبر إلغاء الملكية، وأن مصر أصبحت ذات نظام جمهوري منذ هذه اللحظة، فطمأن يوسف وهبي حليم، وبشّره بهذه البشرى، ومع دقات الساعة الثانية عشرة كان يوسف وهبي يقدم حليم قائلاً: "مع إعلان ميلاد جمهورية مصر، سنقدم لكم ميلاد مطرب جديد هو عبد الحليم حافظ".

أيّ صدفة هذه التي كانت في انتظار هذا الفتى النحيل؟ أيّ صدفة تلك التي جعلت بدايته تتزامن مع بداية عصر جديد في مصر؟ صحيح أن علاقة حليم وناصر لم تكن قد ولدت بعد، ولكن علاقة أكبر كانت قد بدأت.. إنها علاقة عهد جديد، بصوت جديد، وأسلوب جديد، والنظام الجديد دائمًا بحاجة إلى دماء جديدة وفكر جديد يقدمه إلى الجماهير.. لقد ظهر حليم في تلك الليلة ومِن خلفه ستون عازفًا وكان هذا شيئًا جديدًا تمامًا من حيث الشكل، فقد كانت الفرقة لا يتجاوز عددها حتى هذا الوقت عشرة عازفين أو اثني عشر عازفًا على الأكثر.

ولم يكن هذا العدد الهائل يعبّر عن ثراء هذا المطرب، بل إن جميعهم كانوا من زملائه في معهد الموسيقى جاءوا متبرعين من أجل نجاح زميلهم. أما من حيث المضمون فقد غنى حليم "صافيني مرة وجافيني مرة.. ولا تنسانيش كدة بالمرة" من كلمات سمير محجوب وألحان صديقه محمد الموجي، وكانت جديدة تمامًا في الشكل والمضمون هي الأخرى.

وكان حليم من الذكاء والمسئولية بحيث ربط نفسه مع أحلام ومبادئ الثورة، فغنى أول أغنية وطنية له "إحنا الشعب" التي كان نجاحها الساحق دافعًا قويًّا للاستمرار في هذا اللون من الغناء الذي جاء بشكل مختلف عن أي مرحلة سابقة، وجاءت مشجعًا للنظام لأن يرعى هذا الصوت المعبر عن آمال الجماهير ومبادئ السلطة في نقطة التقاء واحدة.

وغنى حليم: بالأحضان يا بلدنا يا حلوة، قلنا هنبني وادى احنا بنينا السد العالي.. يا استعمار بنيناه بإدينا السد العالي. كانت هذه الأغنية في ١٩٦٠، وفي العام التالي أغنية ذكريات الطفولة، وفي عام ١٩٦٤ "يا عديم الاشتراكية" لمرسي جميل عزيز وكمال الطويل، وفي ١٩٦٦ رائعة صلاح جاهين والطويل "صورة" للشعب الفرحان تحت الراية المنصورة – وقد قالت لي السيدة منى قطان زوجة العملاق الراحل جاهين أنه كتب هذه الأغنية بينما كانا في القطار في طريقهما إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل – وفي عام ١٩٦٧ جاءت أغنيات الأبنودي والطويل: بركان الغضب، بالدم، إنذار، اضرب، أشجع رجال، يا استعمار، راية العرب،

وابنك يقولك يا بطل هاتلي نهار، وظل حليم يفتتح جميع حفلاته عقب النكسة بأغنية "أحلف بسماها وبترابها.. أحلف بدروبها وأبوابها.. أحلف بالقمح وبالمصنع.. أحلف بالمدنة وبالمدفع.. باولادي وأيامي الجاية.. ما تغيب الشمس العربية.. طول ما أنا عايش فوق الدنيا".. وقد نذر بغنائها حتى يتحقق الانتصار وتمحى الهزيمة، وهو ما تطلب منه غناءها لمدة ٦ سنوات كاملة.

وأيضًا من أغنيات هذه المرحلة أغنية الأبنودي وبليغ حمدي "موال النهار": عدّى النهار والمغربية جاية تتخفى وراء ضهر الشجر.. وعشان نتوه في السكة شالت من ليالينا القمر.. وبلادنا ع الترعة بتغسل شعرها.. جانا نهار مقدرش يدفع مهرها.. يا هل ترى الليل الحزين أبو النجوم الدبلانين.. أبو الغناوي المجروحين.. يقدر ينسيها الصدى أبو شمس بترشّ الحنين.. أبدًا بلادنا للنهار بتحب موال النهار.. لما يعدّي بالدروب ويغني قدّام كل دار".

ولا ننسى أغنية حليم إبان معارك ١٩٥٦ "يا أهلاً بالمعارك".

استمر حليم في غنائه الوطني بعد عام ١٩٧٠، مما يؤكد أنه لم يكن يغني لعبد الناصر بل كان غناؤه خالصًا لمصر من أي شبهة نفاق أو تملّق، فغنى أثناء حرب ١٩٧٣ "قومي يا مصر"، و"الفجر لاح"، و"عاش اللي قال"، و"خلي السلاح صاحي"، ومع تأكيد النصر وعودة سيناء "وصباح الخير يا سينا"، وقد كان حليم مقيمًا في الأستوديو ومعه صلاح جاهين والأبنودي والطويل في شبه إعاشة كاملة داخل أستوديوهات الإذاعة أثناء حرب ١٩٧٣.

بالأحضان يا مصانع.. يا مزارع.. بالأحضان.. يا حصاد الثورة.. يا حلم وعلم.. بالأحضان.. يا مداين.. يا جناين.. بالأحضان.. ياللى انت بترفع راية السلم.

إن حليم كان قائدًا متمكنًا وبارعًا لجمهوره الذي جمع كل طوائف الشعب، ولعله قام بدور – على المستوى الشعبي – أكبر من الدور الذي لعبه هيكل في جمع الناس حول أهداف الثورة وزعيمها:

على راس بستان الاشتراكية.. واقفين بنهندز ع المية.. أمة أبطال.. علم وعمال.. ومعانا جمال.. بنغني غنوة فرايحية..

كان حليم زعيمًا بالملابس المدنية.. زعيمًا بلا جيش أو قوة تشدّ مِن عوده، إلا قوة إحساس وصدق مشاعره:

ثورتنا المصرية أهدافها الحرية..

وعدالة اجتماعية ونزاهة ووطنية..

بعزيمة الأحرار وإيدين الثوار..

شتتنا الأشرار وجيوش الاستعمار.

كما كان حليم – على ضعفه الظاهر – يحمل قوة في التعبير جعلته ثائرًا مع الثوار.. فقط بالكلمة واللحن والأداء:

انتصرنا يوم ما هبّ الجيش وثار..

يوم ما أشعلناها ثورة نور ونار..

يوم ما أخرجنا الفساد..

يوم ما حررنا البلاد.

مطرب كحليم له كل هذا الانتماء الوطني والوعي القومي، كان لا بد أن يحظى بمكانه خاصة لدى النظام وخاصة رأس هذا النظام وعقله المفكر، سواء كان عبد الناصر أو السادات، وإن كان قد حظي بمكانة أكبر ودور أعمق لدى عبد الناصر بوصفه الأقرب إلى روح الثورة.

ونشأت علاقة من نوع متميز بين ناصر وحليم، حتى إن حليم لم يجد حرجًا من أن يشكو إلى ناصر هواجسه بأن صلاح نصر – مدير المخابرات وقتها – يحاول أن يورطه في عمل ما، وأنه – حليم – لا يريد لنفسه إلا أن يكون فنانًا فقط. وعلى الفور أمر ناصر بأن يرفع صلاح نصر يده عن حليم، ويتركه حرًّا طليقًا، وكذلك أمره برفع المراقبة فورًا عن تليفون حليم عندما تأكد له أن حليم مراقب؛ لأن المخابرات اعتبرته شخصية مهمة بالنسبة لهم يتصل بها شخصيات على مستوى رفيع من كل المنطقة العربية!

وهكذا كان يمكن أن يقع حليم في فخ المخابرات لولا صلابته، ووضوح هدفه، وأيضًا لقربه من ناصر الذي وفّر له الحماية.

كيف لا وقد قال ناصر لحليم في أول مقابلة بينهما:

"إحنا بنعتبرك ظهرت مع الثورة"..

***

إن عبد الحليم حافظ لم يكن مجرد صوت عابر في تاريخ الغناء في حقبة معينة من تاريخ مصر، بل كان كما وصفه بحق الدكتور سيد عويس "إن عبد الحليم حافظ هو الصوت الذي سجل للتاريخ وثائق ثورة يوليو ومكاسبها"، بينما قال عنه يوسف إدريس إنه "الثورة مغنّاة"..

وغنى حليم للبسطاء كلمات لم تكن لتغنى إلا من خلال حنجرة هذا الموهوب الحساس، الذي يغني بأسلوب السهل الممتع، وبكلمات العملاق صلاح جاهين وألحان كمال الطويل الذي كان له نصيب الأسد في أغانى حليم الوطنية:

للأفراح والرفاهية حنمدّ طريق ع النيل..

اسمه في الاشتراكية التصنيع الثقيل..

بس نضاعف إنتاجنا أضعاف أضعاف..

وندبر مهما احتجنا ونحارب الإسراف..

وبقرش الادخار نتحدى الاستعمار..

ونقيم جدار جبار يحمي حياة العاملين..

آدي نقطة بنقطة جميع بنقطة الخطة..

إنها خطبة سياسية كاملة مغناة على لسان العندليب، مع الفارق بأن الخطب السياسية ما كانت لتصل إلى الناس مثلما وصلت عن طريق حنجرته، ولم يكن زعيم الثورة ليقول عن نفسه ما قاله حليم: "ريسنا ملاح ومعدينا، عامل وفلاح من أهالينا.. ومنا فينا الموج والمركب.. والصحبة والريس والزينة.. أحلف بقرآني وإنجيلي، بهدف عظيم دايمًا يناديلي"، وكان هذا هو تفسير حليم للاشتراكية "مُغنًّى" بكلمات جاهين: مفيش أنا.. فيه إحنا يا صاحبي.. أنا وأنت.. وأنت وهو وهيه.. علينا نعمل اشتراكية.. من كلمة حلوة، للقمة حلوة.. وبيت وكسوة وناس عايشين.. آدي القضية".

وبعد هذا.. هل لنا أن نتكلم عن علاقة حليم بالسلطة، بالنظام، بالوطنية، بمصر؟

7

مواجهة ساخنة بين المشير وحليم

(الفنان بطبعه متمرد، حر، طليق، والسلطة -أي سلطة -تمثل قيدًا عليه.. الصداقة بين الفن والسياسة هي صداقة محفوفة بالمخاطر.. صداقة حتى إشعار آخر!)

"عـبد الحلـيم لم يكـن صديقًا لقادة الثورة، بقدر ما كان صديقًا للثورة نفسها ذاتها. وأي حـب أو صـداقة أو علاقـة انـدفاع تجـاه أي مـن رجـالات الثورة وقادتها، كان من أساسياته ودوافعـه والمحـرك لـه، حـبه للـثورة وتجاوبه مع مفهومها وأهدافها وجوهرها ومبادئها التي ظهـرت بهـا، مـنذ أن اعتـبر عـبد الحلـيم نفسه ابنًا من أبنائها وأحد مظاهرها" أعجبتني هذه الفقـرة التـي كتـبها مجـدي العمـروسي في كـتابه عـن العندليب "أعز الناس"؛ ففيها تلخيص لحكايـة حليم مع المشير عبد الحكيم عامر – الرجل الثاني في مصر قبل ٦٧ – الذي اقترب منه حلـيم كرجل من رجالات الثورة المصرية، وابتعد عنه عندما اكتشف أن المشير رجل سياسة، قلبه عند مصلحته، ومنذ متى اتّحدت السياسة مع الفن؟

إن الفنان بطبعه متمرد، حر، طليق، والسلطة – **أي سلطة** – تمثل قيدًا عليه، الصداقة بين الفن والسياسة هي صداقة محفوفة بالمخاطر، صداقة حتى إشعار آخر!

الكاتـب منـير عامـر الذي أعطاه العندليب الراحل قصة حياته ونشرها مسلسلة في مجلة صباح الخير، ثم أصدر عنه كتابًا آخر بعد رحيله، قال لي:

عبد الحكيم عامر يكاد يمثل الجسر الأساسي بين ثورة ٢٣ يوليو وبين عبد الحليم حافظ، ولم يهتز هذا الجسر إلا بعد واقعة الخلاف الشهيرة بين سيدة الغناء العربي أم كلثوم وبين حليم في الاحـتفال بذكـرى الثورة المصرية عام ١٩٦٤، فقد وقف عامر بشكل واضح وقوي مع أم كلثوم.

وإذا كان عبد الناصر قد زار "حليم" مرة واحدة في بيته أثناء أزمة مرضية ألّمت به، إلا أن عبد الحكيم عامر كان هو الأكثر قربًا والأكثر متابعة لحليم، فهو الذي أزال العقبات أمام سفر حليم في رحلته للعلاج بأمريكا بعد يوليو ١٩٦٣، وقام – بنفسه – بعمل الإجراءات الإدارية للسفر.

حليم كان ناصريًا أكثر منه ساداتيًا، رغم أن السادات قد فتح بيته لحليم، ولكن حليم كان مرتبطًا بالثورة نفسها وبرموزها؛ فالثورة هي السبب الحقيقي وراء وجوده، حتى إن ظهوره كان في اللحظة نفسها التي أعلن فيها عن ميلاد الجمهورية، وقد استفاد من رغبة الثورة في أن يعبر عنها، ولكن تقربه كان من خلال حفل أقيم في الجزائر.

وكان عبد الحليم يتواجد بشكل مكثف في مكتب المشير عبد الحكيم عامر، واستمرت بينهما العلاقة حتى حدوث أزمة أم كلثوم عام ١٩٦٤، ولكن العلاقة استمرت بينه وبين شمس بدران الذي توسط للصلح بينه وبين أم كلثوم، وأيضًا فشمس – وليس المشير – هو الذي وفّر مسرح الإسكندرية ليغني فيه عبد الحليم أغنيته الشهيرة "يا أهلاً بالمعارك"، وهو الحفل الذي أقيم لمصالحة عبد الحليم وحضره عبد الناصر والمشير.

وربما يكون عبد الحليم قد حقق بعض المكاسب من خلال علاقته بالمشير، منها مثلاً شقة الزمالك التي عاش فيها حتى أيامه الأخيرة، وأحيانًا كان يطلب من المشير تسهيل شراء سيارات "نصر" لبعض أقاربه ومعارفه.

أما على الصعيد الفني، فقد ساعد عبد الحليم زملاءه الفنانين في طلب موعد مِن عبد الناصر – وكان ذلك مِن خلال المشير – للنظر في شكوى الفنانين مِن مبالغات الضرائب عن أرباحهم، وهو الاجتماع الذي حضره حشد من الفنانين يتقدمهم محمد عبد الوهاب الذي لوحظ أنه لم يتفوّه بكلمة واحدة طوال الاجتماع، بينما كان حليم هو أكثر المتحمسين والمنفعلين، ولذلك داعب ناصر الفنان عبد الوهاب بقوله: إنت اتكلمت كتير وشرحت الموقف كويس يا أستاذ محمد!

وعن اهتمام المشير بالفن والفنانين يقول منير عامر: بدأ ذلك من خلال صلاح نصر الذي حبب إليه الاستمتاع بمجالستهم وتمضية بعض الوقت معهم، بالإضافة إلى أنه كان يرى في (حليم) – تحديدًا – تجسيدًا للثورة مع عزوف عن الانغماس فيها.

ولكن العلاقة بين حليم والمشير تكسرت على أعتاب أزمة حليم مع السيدة أم كلثوم، بعد ما لاحظ حليم وقوف المشير بقوة إلى جانب كوكب الشرق، وانحيازه لرغبتها في اختيار الموعد المتميز الذي رأت أنه يحقق انتشارًا أفضل لأغنيتها الوطنية والعاطفية، مع الاستئثار بأذن ضيوف الحفل الكبار.

ولذلك فعندما وقعت كارثة ١٩٦٧، وما تلاها من القبض على المشير وتحديد إقامته، لم يفكر أحد في سؤال عبد الحليم عن علاقته بالمشير، ولم يتوقعوا عنده جديدًا يفيد التحقيقات، فالعلاقة بينه وبين المشير كانت قد تحولت إلى علاقة يغلب عليها الفتور.

ومن جهة أخرى كان حليم أذكى من أن ينغمس في السياسة قبل ٦٧، أما بعد النكسة فقد انغمس أكثر في لعب الورق (الكوتشينة) كغالبية المصريين، فأسرف في السهر وارتياد النوادي الليلية، ولكن مع وجود حالة حرب (الاستنزاف) كان يعتبر نفسه جنديًّا في الميدان.

وعن تفاصيل الخلاف بين المشير وحليم يقول مجدي العمروسي: "كانت ليلة ٢٣ – يوليو – تقام فيها حفلة ينظمها الجيش، ضيف الشرف فيها هو جمال عبد الناصر، والداعي فيها عبد الحكيم عامر نيابة عن الجيش، وكان يُدعى لإحياء هذه الحفلات الصفوة من الفنانين وعلى رأسهم سيدة الغناء وعندليب الغناء، وكان ترتيب الحفل أن تغني سيدة الغناء أغنيتها الوطنية، ثم تحضر العشاء مع عبد الناصر ومعها عبد الوهاب وعبد الحليم، ثم في الساعة ١٢ يغني عبد الحليم في الوقت المتميز".. وفي عام ١٩٦٤ أعدّت السيدة أم كلثوم قصيدة وطنية، وأرادت أن تأخذ الموعد الذي اعتاد عبد الحليم أن يغني فيه، وبعد أن تنتهي هي يبدأ حليم في الغناء بعد الثالثة صباحًا، وكان من ضيوف الحفل الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس بن بيلا والرئيس نكروما وغيرهم.

وكان طريق السيدة أم كلثوم لتنفيذ ما أرادت هو المشير عبد الحكيم عامر – الذي كان العندليب يظن أنه صديقه – قالت أم كلثوم للمشير إن المسرح حارّ جدًّا وليس به تكييف، وأنها تتعب من التأخير، وأضافت حسب رواية الأستاذ مجدي العمروسي: "أنا عاوزة أغني أغنيتي الوطنية وبعدها العاطفية وأروّح، وأترك لكم المسرح بعد ذلك أنتم أحرار فيه".

وكانت علاقة السيدة أم كلثوم بالمشير تسمح لها بهذا الطلب فيما يبدو، ولكن المشير ربما لأنه اعتقد أن الأمر عاديًّا، وربما لسبب آخر، لم يُبلغ الأمر لعبد الحليم، ولم يَعلم حليم ذلك إلا قبل الحفل بساعة واحدة فقط! فذهب مسرعًا إلى حيث مكان المشير وأبلغه بأنه لن يغني في هذا الحفل، ولكن المشير كان في غاية الرقة وهو يهدئ من غضب العندليب لدرجة أنه كان يمسك شعر رأس حليم وهو يطلب منه العدول عن موقفه، بل وأخبره أن موافقته على طلب أم كلثوم جاءت دون أن يعرف أن في الأمر ما يغضبه، وأثناء الحوار المشترك بين المشير وحليم

مـر بهـما الـرئيس عـبد الـناصر وعـرف أن حليم غاضب من موعد غنائه، إلا أن المشير عامر خفـف الأمـر وقـال: إن سـبب غـضب حلـيم هو أنه سيغني بعد انصراف الرئيس وضيوفه، وفورًا أصدر ناصر قرارًا بتأجيل موعد سفر ضيوفه، ليستمعوا جميعًا لغناء حليم. ولكن حليم لم يَـنْسَ مـا فعلته كوكب الشرق، فبدأ وصلته الغنائية بكلمة وجّهها لحضور الحفل قائلاً: "إنه شرف عظـيم أن يخـتم أي مطـرب حفـلاً تغنـي فيه سيدة الغناء أم كلثوم، ولكن اللي أنا مش متأكد منه، إن كان ده شرف ولا مقلب من السيدة أم كلثوم؟".

وتكهرب الجو..

وفي الـيوم الـتالي تـم إبـلاغ حليم أن المشير عامر يريد رؤيته في المعمورة، ولم يكن حليم يـدري أنـه في هـذه المقابلة سيرى مشيرًا آخر غير الذي يعرفه واعتاد رؤيته، فقد ذهب إليه في المعمـورة لـيجد رجـلاً مـتجهمًا، تجاهـل حتى التحية التي وجهها إليه حليم عند دخوله غرفة المكتب، وتظاهر المشير بأنه منهمك في دراسة أوراق أمامه، وكان بصحبة حليم في ذلك اليوم صديقه مجدي العمروسي وعلي إسماعيل، ورغم أن مجدي العمروسي يؤكد أن اصطحاب علي إسـماعيل معـه بـسبب اعتقاد حليم أنه ذاهب لتسلّم وسام أو نيشان بمناسبة إجادته الغناء في حفل الليلة السابقة، إلا أن الأمر بدا وكأن حليم يخشى رد فعل المشير بسبب جملته الغاضبة في حق كوكب الشرق التي تأكد من التقدير الشديد والمكانة الخاصة لها عند المشير عامر(!).

وبصوت جهوري فيه رائحة (الشخط) سأل المشير:

- إيه اللي إنت قلته إمبارح ده؟ هي أم كلثوم اللي بتنظم الحفل واللا الجيش؟

وأردف قـائلاً بـنفس لهجـته الغاضـبة: بكرة يا أستاذ تنشر في كل الجرايد اعتذار صريح تعتذر فيه للسيدة أم كلثوم عن اللي قلته.. فاهم؟".

وكـاد عبد الحليم أن يبكي وهو يسمع هذه النبرة من المشير وقال بكبرياء الفنان: "شوف يـا فندم.. أنا مطرب صغير، وسيادتك الرجل الثاني في مصر، ممكن تمنعني من الغناء، توديني الـسجن الحـربي، ممكـن تخرجنـي مـن مـصر، لكن لا يمكن أبدًا سيادتك أو أي مخلوق يقدر يخليني أنزل عن كرامتي وأعتذر لأي مخلوق مهما كان، ولو كانت الست أم كلثوم"..

ونادى حليم على صديقيه: ياللا يا مجدي.. ياللا يا علي. وخرجوا جميعًا من الغرفة وسط صياح المشير: يا شمس.. يا شمس.. حوش المجنون ده!!

وفي العـام الـتالي (١٩٦٥) اختار المشير السيدة أم كلثوم لتحيي عيد الثورة منفردة بدون حليم، وردّ عبد الناصر بتنظيم حفل خاص في الإسكندرية لحليم..

هذه هي صورة مبسطة ولكنها واضحة لشكل العلاقة بين الفنان والسلطة.. قوة وبطش وكبرياء قد يدفع الفنان ثمنه.

ورغـم مـا قالـه لـنا الكاتـب منـير عامر، فإن الكاتب عادل البلك في كتابه "عبد الحليم حـافظ" يـؤكد أن العلاقـة بـين المشير وحليم كانت طيبة وودية أكثر من اللازم، فكان المشير يترك كل أعماله وأعبائه عندما يشاهد حليم و... بالأحضان!

والأهـم مـن ذلـك فـإن عـادل الـبلك يكـشف عن وفاء العندليب لأصدقائه، وخاصة صـداقته مـع المشير عامر، حتى بعد واقعة انحياز المشير لسيدة الغناء في عام ١٩٦٤ بسنوات، وهـو يقول في هذا السياق: "وإذا كان المشير عامر قد منعه من الغناء في احتفالات ٢٣ يوليو، فإنـه لم يترك المشير في أزمته مع الزعيم الراحل عبد الناصر.. كان يزوره دائمًا في فيللته بالجيزة عـندما تحـولت الفـيللا إلى ترسـانة مـسلحة أو "قـشلاق" بهـا قلـيل مـن الجـنود، وكثير من الصعايدة الذين حضروا من بلدة المشير "إسطال" ومعهم أسلحتهم.

ويمضي البلك في روايته لهذه الواقعة المهمة فيقول:

– كـان مجـدي العمروسي ينتظره على باب الفيللا، وشاهد الرئيس عبد الناصر يدخلها، وكـان الـرئيس عـبد الـناصر حريـصًا عـلى أن يـذهب بنفسه لإخراج صديق الشباب ورفيق الـسلاح المشير عامر، قبل أن تهاجَم الفيللا ويحدث ما لا تحمد عقباه، وإن كان حدث بصورة أو بأخرى بعدها بأيام قليلة.

وعندما شاهد الرئيس عبد الناصر عبد الحليم نادى عليه وقال له:

– إنت بتعمل إيه هنا؟

– وقال حليم: أبدًا يا فندم، أنا بازور المشير!

فقال له عبد الناصر: طيب روّح أنت.

وبقي عبد الناصر واقفًا حتى شاهد بنفسه عبد الحليم وهو يركب سيارته ويتحرك بها.

هنا يقول مجدي العمروسي:

- في الطريق شاهدت الدبابات تملأ الشوارع المحيطة بفيلا المشير، ودبابات أخرى في طريقها إليها، وعرفنا أنها نهاية الصداقة الطويلة العريضة التي ربطت بين الزعيم والمشير، ونهاية سلطة المشير وسلطانه.

وكان هذا نموذجًا لصداقة من نوع خاص بين فنان وأحد مراكز السلطة، نموذجًا لصدق الفنان ووفائه تجاه سلطة كانت تتهاوى وتسقط من علٍ.

وكان أجمل ما فيها أن الفنان لم يكن يبحث عن مصلحة في آخر مراحل الصداقة، وإن كان قد وجدها في بدايتها!

حليم كان يصادق في السراء والضراء، يعانق في أيام الفرح ولا يهرب في لحظات الدموع!!

8

العندليب والمخابرات

(ومن هنا كانت المواجهة الخطرة بين صلاح نصر وعبد الحليم القوية مع الكاتب مصطفى أمين والفنانة شادية التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لمضايقات من بعض أعوان صلاح نصر... وتأكد عبد الحليم من أن تليفونه تحت المراقبة...)

وكـان اقـتراب حلـيم من القيادة السياسية في مصر عقدى الخمسينيات والستينيات يثير علـيه أشخاصًـا وجهـات عديـدة، خاصـة مع احتلاله لمكانة لم يسبقه إليها فنان، فها هو أنور السادات يقول: "إن محمد حسنين هيكل يجلس في عقل عبد الناصر، ويقرأ أفكاره ويعبر عنها في كـتاباته.. وإن عـبد الحليم حافظ يجلس في حنجرة عبد الناصر، ويوصل للجماهير ما يريد أن يقوله بأغانيه".

إلى هـذا الحد كان كل مَن حول عبد الناصر يعلمون أهمية عبد الحليم بالنسبة له وبالنسبة للـثورة المـصرية. وبالطبع فإن عبد الحليم كان يعلم مكانته عند الرئيس، فكان يخاطبه مباشرة إذا مـا تعـرض لأيـة مـضايقات، وكـان لا يجد حرجًا في أن يكتب له الخطابات التي يئن فيها بالـشكوى أو حتـى يلمِّـح، رغـم أنه كان مسموحًا له بزيارة منزل عبد الناصر والجلوس مع أسرتـه وأولاده في أي وقت يشاء حليم. وها هو يكتب ذات يوم إلى الرئيس شاكيًا: "هناك يا سـيادة الـرئيس مَـن يحاولـون أن يـباعدوا بينـي وبـين الغـناء للـثورة، وحيـنما أغنـي بستان الاشتراكية، فإنني أحاول التعبير عن أحلامك بصفتي واحدًا من جنودك".

وقـد تأثر الرئيس عبد الناصر بهذا الخطاب تأثرًا بالغًا وقام بالاتصال تليفونيًّا بالعندليب فـور انـتهائه مـن قراءة الخطاب، وطمأنه وطلب منه ألا يهتم بشيء قدر اهتمامه بصفته وبفنه. ولم تكـن علاقـة عـبد الحلـيم بالـسلطة قاصرة على علاقته بالرئيس جمال عبد الناصر، بل إنه ارتـبط بعلاقـات صداقة مع عدد كبير من القادة والمسئولين، ومنهم المشير عبد الحكيم عامر، وشـمس بـدران مديـر مكـتب المـشير والـرجل القـوي حينـئذٍ، حتى إننا نجد ضمن أوراقه ووثائقـه الشخـصية – وثائـق العندلـيب – بطاقـة مـن المشير تحمل اسمه وصفته: المشير عبد الحكـيم عامـر – نائـب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة، ومدوَّن عليها عبارة "مـع أطـيب الأمنـيات بالـشفاء العاجل".. وهي مجاملة رقيقة تعبر عن مكانة العندليب عند مرسل البرقية.

في حين أن صلاح نصر رئيس المخابرات العامة وقتها لا يرتاح إلى عبد الحليم، ويبدو أنه كان يضايقه هذه الصلة المباشرة بين عبد الحليم والرئيس عبد الناصر، وكان يرى أن عبد الحليم أخذ حجمًا أكبر من حجمه - لاحِظوا النظرة القاصرة إلى الفن والفنان - وزاد الغضب والخطر على عبد الحليم عندما حاول رئيس المخابرات - صلاح نصر - تكليف عبد الحليم حافظ ببعض العمليات للحصول على معلومات من شخصيات رفيعة المستوى لصالح جهاز المخابرات.

فيما كان عبد الحليم يرى أن هذا الدور ليس أبدًا هو الدور الذي يجب أن يلعبه الفنان، خاصة إذا كان فنانًا له مكانته الرفيعة ومصداقيته عند الملايين من معجبيه.

ومِن هنا كانت المواجهة الخطرة بين صلاح نصر وعبد الحليم حافظ، وزادها سوءًا علاقة عبد الحليم القوية بالكاتب مصطفى أمين والفنانة شادية التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لمضايقات من بعض أعوان صلاح نصر، بينما قصة الأستاذ مصطفى أمين معروفة بين اتهامه بالعمالة والتبرئة منها، وتأكد لعبد الحليم أن تليفونه تحت المراقبة، وأن أغانيه أصبحت قليلة الإذاعة، وعن طريق شمس بدران التقى عبد الحليم بالمشير عامر، بناءً على نصيحة من عبد الوهاب الذي قال له: إن أردتَ اختصار الطريق فاطلب مِن المشير أن يحدد لك موعدًا عاجلاً مع عبد الناصر، ونفّذ عبد الحليم النصيحة بحذافيرها، وفي اليوم التالي لمقابلته للمشير جاءه تليفون عند الظهر وقال له المتحدث: أنا جمال عبد الناصر!

ويحكي عبد الحليم في مذكراته ما حدث بعد ذلك قائلاً: ".. وارتجفتُ ووقفتُ وقلتُ: أهلاً يا فندم.. ده كرم كبير من سيادتك.. فقال لي: اطمئن.. متاعبك في الإذاعة حاتنتهي فورًا.. وأنا سمعت إنك زعلان لأن أغانيك لا تذاع بالشكل الكافي وده مش معقول.. إنت ثروة قومية يا عبد الحليم.. فقال عبد الحليم والدموع تملأ عينه: مش عارف أشكر سيادتك إزاي لاهتمامك رغم مشاغلك الكبيرة، فضحك الرئيس وقال لي: بس حافظ على صحتك.. وأنا رأيي إنك تتجوز علشان حد يرعاك وياخد باله منك.. فقلت - عبد الحليم - أوامرك يا فندم! فضحك عبد الناصر وقال: الجواز مش بالأوامر، لكن أنا بتمنى لك السعادة".

ولكن لم تهدأ المضايقات لعبد الحليم، بل إن أحد الأشخاص جاءه ذات يوم قائلاً له: أنا باحذّرك يا عبد الحليم أنهم لن يسمحوا لك بتجاوز الخطوط الحمراء في علاقتك بعبد

الناصر، وفي تلك الأثناء لاحظ أن المشير عامر بدأ يضيق به بعد أن لاحظ ازدياد حب عبد الناصر له، في حين كان المشير أكثر ميلاً للسيدة أم كلثوم، كما أن علاقته كانت قوية من صلاح نصر نفسه! واستغل صلاح نصر صداقة عبد الحليم مع مصطفى أمين وحاول إفساد علاقة الرئيس عبد الناصر بعبد الحليم على اعتبار أن مصطفى أمين كان متهمًا في ذلك الوقت بالتخابر لحساب المخابرات الأمريكية، خاصة أن حليم كان صديقًا وفيًّا لأصدقائه وكان يدافع عن مصطفى أمين متحديًا الجميع، وأعدّ صلاح نصر مجموعة من التقارير تشير إلى أن ثمة جلسات تتم في منزل عبد الحليم وتعادي النظام، بالإضافة إلى تقارير أخرى تشير بأصبع الاتهام إلى علاقة عبد الحليم بأمراء سعوديين في وقت كانت العلاقات فيه متوترة بين مصر والمملكة العربية السعودية، وطلب عبد الحليم بعناد أن يدلي بشهادته في قضية الأستاذ مصطفى أمين فقد كان يعلم أن اتصالات مصطفى أمين بالأمريكان تتم بعلم الرئيس عبد الناصر شخصيًّا، ورفض صلاح نصر ذلك بشدة.

وأثيرت حملة منظمة ضد عبد الحليم استغلوا فيها انشغاله بالقضية التي ثارت وقتها حول زواجه من الفنانة سعاد حسني – وهي القضية التي لم تحسم حتى هذه اللحظة – ورددوا أن عبد الحليم انشغل بسعاد حسني عن مهمته في الغناء للثورة.

وبدا أن الحملة هدفها الأول هو القضاء على عبد الحليم فنيًّا ونفسيًّا!

وأبلغ عبد الحليم صديقه شمس بدران بأن تليفونه مراقب، وفي اليوم التالي تأكد الرئيس عبد الناصر بنفسه من صدق المعلومة وأمر برفع المراقبة عن (صوت) الثورة! وهكذا كلما اشتدت المضايقات والمخاطر على العندليب، لجأ إلى قمة هرم السلطة – ممثَّلاً في الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًّا – لينقذه بقرار جمهوري شفهي! ولذلك جاءت رسالة الرثاء التي كتبها عبد الحليم حافظ للزعيم عبد الناصر يوم وفاته مؤثرة وعميقة المعاني.. ولنقرأ برقية عبد الحليم في رثاء الزعيم: "يا زعيمنا العظيم..

بعد أن استرجعت أول أنفاس من هول صدمة رحيلك عنا، طلبوا مني أن أكتب كلمة عنك، أحس أن هناك سدودًا توضع في طريق جيل الفنانين الذي تربى على مبادئك وشرب منها وآمن وعمل بها.. وكنتَ يا زعيمنا العظيم تشير لنا كيف نتخطى هذه السدود دون أن نصاب بجرح ولو بسيط.. ودون أن نصيب أيضًا أحدًا ممن يقومون بوضع هذه السدود في

طريق تقدم جيلك من الفنانين.. كنتَ تقول إن هذا صراع الحياة.. لا تخافوا.. تقدموا.. وقدموا كل ما عندكم من فن.. إنني يا سيدي الرئيس الحبيب.. يا أغلى ما في الحياة بمصر والعروبة.. والشرق.. إنني سأحمل مبادئك على صوتي.. أرددها مدى وجودي في كل مكان في العالم.. كما كنت أفعل دائمًا.. فأنتَ باقٍ في نبضي وكياني.. ودمي.. أنت وكل مبادئك العظيمة الخالدة.. رحم الله روحك الطاهرة، وأعان مصر والعرب".

....

ورحم الله عبد الحليم حافظ.

***

9

ميم اللبنانية واللعبة مستمرة

(تكـشف القـصة عـن الرغبة المستمرة في استناد بعض الفنانين والفنانات إلى قوة السلطة، كما توضح ذوبان الخيط الرفيع بين الفن والكبار)

وفي هـذا الـسياق فإن آخر ما تم اكتشافه من قضايا حول بعض الفنانات العربيات، كان مـن خـلال مقـال كتبه الصديق وائل الإبراشي في مجلة روز اليوسف في عددها رقم (٣٨٤٥) بتاريخ ١٦/ ٢/ ٢٠٠٢ حيث كتب هذه القصة التي استطاع – كصحفي – أن يتوصل لبعض أسرارهـا، وهـي تكـشف بجـلاء عـن الـرغبة القـوية في استناد بعض الفنانين والفنانات إلى سلطة، كما توضح ذوبان الخيط الرفيع – للأسف – بين الفن والأجهزة الأمنية والمخابراتية!! وأتـركـكم مـع سـطور وائـل التـي اسـتخدم فـيها الكلـمات الواضـحة التـي تسمي الأشياء بمسمياتها، ولم يلجأ إلى أسلوب المراوغة أو الإيحاء:

"مـنذ عامـين هاجمتُ المسئولين الأمنيين المصريين السابقين الذين منعوا المطربة السورية مـيادة الحـناوي مـن دخـول مصر لمجرد أن الموسيقار المبدع الراحل محمد عبد الوهاب طلب مـنهم ذلـك، وهـو يبكـى مترجيًا إياهم إنقاذ بيته من الخراب لأن زوجته نهلة القدسي هددته بالـرحيل إذا حـضرت مـيادة الحـناوي إلى مـصر، وكانـت نتيجة ذلك المنع القسري الظالم أن الجمهـور المصري استقر في يقينه ما تردد وقتها من أن ميادة الحناوي تعمل مع جهاز مخابرات عربي للتجسس على مصر.

وبعـدها اتـصل بي مـسئول لبناني بارز – قال إنه لن يكشف عن اسمه – ولكنني مضطر الآن للكـشف عـن مـضمون مكالمـته.. قـال لي: يـا أخي أنت دافعت عن ميادة الحناوي على اعتـبار أن إنقـاذ بيت فنان كبير مثل عبد الوهاب لا يجب أن يكون ثمنه وأد حرية فنانة عربية، خاصة أن مصر هي أم العرب. طيب فيه فنانة لبنانية جميلة وصوتها عذب ورائع وممكن تنجح مـثلما نجحـت اللبنانـيات: نـوال الزغبـي، ونجـوى كـرم، وديانا حداد، ومثلما نجح راغب علامة، ووائل كافوري، ووليد توفيق.. قلت للمسئول اللبناني: وماله.. تيجي مصر وتنجح. فـردّ: مـا تقـدرش تيجـي؛ لأنهـا المطـربة اللبنانية الوحيدة الممنوعة من دخول مصر، وهي لا تعـرف سـببًا لـذلك، وسـبق أن تقـدمت بأكثـر من طلب للسلطات المصرية لرفع اسمها من قوائم الممنوعين من دخول مصر.. سألته: ما اسمها.. قال: ميم اللبنانية.

وسأل الإبراشي مسئولاً مصريًا، وكل ما عرفه أن ميم ممنوعة من دخول مصر لأسباب أمنية، وهذه العبارة نترجمها دائمًا إلى أن المنع سببه الاشتباه في أو اليقين من علاقة هذه الفنانة بأجهزة مخابراتية عربية أو أجنبية، ولما قابل المسئول اللبناني أخبره بسبب منع ميم فرد غاضبًا: يا أخي.. الماضي يموت! وبعدين عاملوها زي ملكة جمال العالم السابقة "ج" المتزوجة الآن من المطرب اللبناني "و"، وكانت قبل ذلك متزوجة من أخطر شخصية فلسطينية الذي كان ملقبًا بالأمير الأحمر (والذي قُتل على يد الإسرائيليين منذ ٢٣ عامًا)، وفي ذلك الوقت كانت منظمة التحرير الفلسطينية تهاجم مصر وتتهم نظامها بالخيانة، ومع ذلك لم تتعاملوا معها بنفس المعايير الأمنية التي تطبقونها على الغير".

وبعد ذلك ينقلنا الإبراشي إلى هذا الاكتشاف "المهم وأنا أتصفح كتاب روبير حاتم الملقب بـ"كوبرا" الذي كان كاتمًا لأسرار "إيلي حبيقة" السياسي والعسكري اللبناني الخطير الذي قتل بسيارة مفخخة، أقول وأنا أتصفح الكتاب الملغم والمحظور، وقع بصري على اسم ميم اللبنانية ضمن أسماء الفنانات اللبنانية اللاتي اقتربن من إيلي حبيقة حسبما كشف كاتم أسراره الملقب بـ"كوبرا"، وكانت المفاجأة لي أن المسئول اللبناني الذي حدثني في أمر ميم كان هو أيضًا أحد الذين ارتبطوا بعلاقات سياسية وطيدة جدًا مع إيلي حبيقة، وأحد الذين ساعدوه في الانتقال من العلاقات مع إسرائيل إلى التحالف مع سورية.

وليس هذا كل ما في سطور المقال، بل إن هناك إشارة إلى اسم آخر لمطربة لبنانية أخرى تم ترحيلها من مصر إلى لبنان في ١٣ ديسمبر عام ١٩٩٤، وهي مطربة لبنانية شهيرة تكشف المعلومات لأول مرة عن أنها قد سبّت مصر والمصريين في مشاجرة لها مع أحد المواطنين المصريين عقب وقوع تصادم بين سيارتيهما أعلى كوبرى ٦ أكتوبر، كما أنها (اقتربت) من ابن مسئول سابق في محاولة للحصول على دعم وقوة وسلطة ونفوذ ليساعدها على تحقيق أحلامها في (الصعود)..

....

كل هذه المعلومات الحديثة تعن أن اللعبة لم تنته بعد.. لعبة الفن والسلطة!

* * *

10

كنترول النجمة (س)

(انطلق نجم هذه الفنانة المميزة بسرعة هائلة منذ العمل السينمائي الأول، حتى حصلت على لقب يسعد كل فتاة الحصول عليه، وأصبحت بالفعل فتاة أحلام الشباب، وساعدها على ذلك شخصيتها المرحة، المنطلقة، المحبة للحياة، ساحرة الابتسامة.. حتى كادت هذه الابتسامة أن تنطفئ، فبعد أن حققت نجوميتها، كانت هناك عين ترصدها بخلاف عيون جماهيرها المحبة)



لـن يـسعدني أن يتعـرف القـارئ - بـسهولة أو بـصعوبة - عـلى بطلة هذا الفصل الذي فـضلت أن أشـير إلـيها بحـرف واحد فقط على سبيل الرمز. وسبب حرصي على إخفاء اسم صاحبة هذه المغامرة التي دُفعت إليها دفعًا هو جماهيريتها العريضة، وشعبيتها الطاغية، وحالة الـبهجة الـتـي حققـتها لمحبـي فنها، ومازالت تحققها بأعمالها التي تحرض مشاهديها على حب الحـياة. والحقـيقة أن صراعًـا داخليًّا عنيفًا شبّ في داخلى قبل أن أكتب هذا الفصل المقتضب، وسبب الصراع هو السؤال الذي حيرنى بشدة: هل كل ما نعرف يقال أم لا يقال؟

وقبل ذلك: هل كل ما نعرفه حقائق.. أم أن الكثير منه أكاذيب وأساطير؟

وهـل التعـرض لمـثل هـذه المغامـرة لـنجمة أحـزنت مـصر كلها عند رحيلها يعد عملاً مشروعًا، أم هو نبش في القبور؟

والحقـيقة أننـي ارتحـت إلى وجهـة نظـر ترى أن الحقائق - إن كانت كذلك - فيجب أن تُعلن، وهو ما اصطلح على تسميته بحق المعرفة.

هذه واحدة.

وأن حـياة المبدعـين يجب أن تكون محل دراسة وبحث، فربما أفاد ذلك الباحثين يومًا ما، وتلك واحدة أخرى.

ولكـن الذي دفعنى في اتجاه بحث هذه الحالة التي أرجو أن تكون وقائعها عكس الحقيقة رغـم ذكـر هـذه الوقائـع في تحقـيقات ومحاكمات رسمية، فيما عرف بتحقيقات محكمة الثورة، دفعنـى لـذلك أن أتـناولها كقـصة تجسد الزجّ بالفنان ودفعه دفعًا للاشتراك في لعبة السلطة.. لعـبة الكـبار.. لعبة الكراسي الخطرة. أعرف أن بعض الفنانين كانوا هم الساعين إلى مصادقة السلطة، ومن ثم اللعب معها لتحقيق أهداف مختلفة تشترك فيما بينها في (المصلحة)، فالسلطة تـريد شـعبية الفـنان وعلاقاته المتشبعة والأبواب المفتوحة أمامه (بصرف النظر عما تؤدي إليه هذه الأبواب)، ومن ثم تصل إلى ما تحب أن تصل إليه.

أمـا الفنان الذي يحترق شوقًا إلى سلطة تدعمه، ونفوذ يفرضه، فهو يسعى إلى الدخول في لعبة مثـيرة، لعـبة تحقـق لـه المتعة حتى لو اقترنت بكثير من التوتر، لعبة تحقق له التفوق على أقرانه، والمرور من الباب الملكي إلى رحابة الشهرة الأوسع والنجومية الأكثر بريقًا ولمعانًا.

وفي الحقـيقة، فـإن الفـنان المغامر يبحث عن (دور) أكثر إثارة، يرسمه له الكبار، ويؤديه هـو بتـصرف، يستخدم فيه كل إمكاناته الجسدية والعقلية، دور بلا رقابة تحدّ مِن حريته، وبلا سيناريو مؤكد، بل إنه سيناريو يعتمد على الارتجال، يقول فيه ما يريد، ويسمع ما لا يتوقع!!

وفي هـذه الحالـة التي نرصدها في هذا الفصل من الكتاب دور لفنانة بدأت فطرية، بكر، بـسيطة إلى أبعـد الحدود، إذا ابتسمتْ لك فكأنها الدنيا تبتسم، وإذا نظرتْ بعينيها الناعستين، فكـأنهما همـا وردتان تتفتحان مِن أجلك أنت، أما قوامها فرشيق رشاقة غزال شارد اكتشفتها الـسينما، فاكتـشفها الـناس مـنذ أول أدوارهـا، أحـبوها.. رفعـوها إلى مـصافّ النجمات، بل وصعدت فوق أعلى هرم النجومية.

ولكـن يـثار أحـيانًا اللغـط حـول حياة بعض النجوم الشخصية، ويقال في ذلك الكثير، ولكن لم يتقدم أحد ليحلل لنا ما الذي يحدث للبراءة حتى يحدث لها هذا التحول.

لم يقل لنا أحد كيف تفسد الأضواء – أحيانًا – من نحبهم؟

ولكـن طـبعًا سيعود بـنا المحللـون والمفـسرون إلى النشأة والبيئة والظروف الاجتماعية والنفسية.. وأشياء كثيرة ولكن يبقى اللغز قائمًا!

ولكـن هـذه الـنجمة ولنرمـز لهـا بالحـرف (س) لم يكن في ذهنها المغامرة مع الكبار ولا الدخـول في مغامرات المخابرات، ولكن البعض حاولوا دفعها دفعًا لذلك، ورغم أنه قد قيل مـا قـيل عن تجنيد – أو محاولات تجنيد – عدد من الفنانات في ذلك الوقت، إلا أننا لن نسرف في (الاعـتماد) عـلى هـذه الـروايات، إلا من خلال هذه القصة التي تكشف عن أسلوب ما – قـيل إنـه تكـرر – في التجنـيد والسيطرة على هذه النجمة، لنرى كيف كان رد فعلها، وما هي درجة حماسها للدخول في تلك اللعبة الخطرة.

فقـد انطلـق نجـم هذه الفنانة بسرعة هائلة منذ العمل السينمائي الأول لها حتى حصلت على لقب يسعد كل فتاة الحصول عليه، ويشير إلى رقتها وعذوبتها وجمالها، وأصبحت بالفعل

فتاة أحلام الشباب، وساعدها على ذلك شخصيتها المرحة، المنطلقة، المحبة للحياة، ساحرة الابتسامة.. حتى كادت هذه الابتسامة أن تنطفئ؛ فبعد أن حققت نجوميتها، كانت هناك عين ترصدها بخلاف عيون جماهيرها المحبة.

ولم تكن هذه العين سوى عين صلاح نصر مدير جهاز المخابرات المصرية في ذلك الوقت، وحسب رواية اعتماد خورشيد التي سجلتها في كتاب ممنوع لها، وحسب ما قالته في اعترافاتها في محكمة الثورة، فإن النية كانت تتجه في ذلك الوقت داخل جهاز المخابرات لتوسيع قاعدة مندوبات المخابرات من الوسط الفني، وكانت النجمة الرقيقة (س) من بين المرشحات لهذا الغرض، بينما كان هناك رأي معارض من أحد قادة المخابرات لتجنيد الفنانات باعتبار أن هؤلاء الناس (الفنانين) "كلامهم كثير"!

ولكن انتصر الرأي الأول، وحدد الأمر بالقيام بعملية السيطرة "الكونترول" على النجمة (س) لكي يتم تجنيدها للعمل كمندوبة للمخابرات بحجة أنها أصبحت مشهورة، وأصبحت لها شبكة قوية من العلاقات مع شخصيات مهمة ومرموقة داخل مصر وخارجها!

وعلى الفور تم وضع خطة محكمة لاصطياد النجمة (س) وجذبها إلى السنارة، ولكن بقي فقط البحث عن طُعم يتمتع برائحة نفاذة وطعم مقبول لكي يجذب إليه النجمة، وبالفعل رَشحت إحدى المندوبات وهي راقصة سابقة، رَشحت الممثلة – (ل) كوسيط تستطيع أن تساهم بعملية فرد الشباك وتدفئة المياه لصعود السمكة (س) إلى السطح، وهي تعلم بالطبع أنها ستهوي بها بعد ذلك إلى القاع بعد أن تكون ساهمت في سلب إرادتها!

وتستمر القصة بعد ذلك – ولسنا مضطرين إلى قبولها كاملة – لتروي كيف أن هذه الممثلة قامت بعملية تعارف بين النجمة (س) وبين أحد الأشخاص الذين قدمته لها على أنه سائح فرنسي، ولم يكن هذا السائح سوى مترجم اللغة الفرنسية في جهاز المخابرات، ويقال – حسب هذه الرواية – أنه قدم للنجمة مبلغ (٣٠٠) جنيه على سبيل الهدية، وبعد ذلك نجح في اصطحابها إلى مكان آمن في منطقة مصر الجديدة. وطبعًا يمكن استنتاج الخطوة التالية، وهي تصوير النجمة – بدون علمها طبعًا – لاستخدام الشريط في الضغط عليها وإجبارها على العمل كمندوبة للمخابرات، ولكن ما لم يكن متوقعًا بالمرة هو أن يحضر التصوير مدير المخابرات بنفسه – حسب هذه الرواية التي لا نعلم مدى حقيقتها – وأن يضبط بنفسه الكاميرا ليحدد زوايا التصوير وأحجام اللقطات.

ولم يكن صعبًا بعد ذلك أن توقِّع هذه النجمة – وهي في هذه الحالة السيئة والأعصاب المنهارة – على إقرار بتعاونها مع المخابرات كمندوبة، وهو نموذج معدّ سلفًا يوقعه المندوبون، كما وقّعت على كراسة تعرف باسم "P.R.G" ولست أدرى هل هو شيء طريف ما تذكره وقائع تلك القصة من أنه تم استرداد مبلغ الـ"٣٠٠" جنيه التي أعطاها المترجم للنجمة لتعود إلى خزانة المخابرات؟!

ولكن كان هناك رأي داخل الجهاز يرى أن هذه القسوة التي عوملت بها النجمة لم يكن في صالح العملية، ومن هنا تم استرضاؤها بالذهاب إليها في منزلها وتقديم بعض الهدايا لها على سبيل الاعتذار.

ولكن اللافت للنظر أن النجمة لم ترضخ لهذه الضغوط القاسية، ولم تنفذ بنود الإقرار الذي وقعته على نفسها، بعد أن شعرت بالمهانة والمذلة من طريقة التعامل معها، وهي النجمة التي تلهب المشاعر بإطلالة واحدة منها على الشاشة الفضية، ولم تَخْشَ الشريط الذي سُجِّل لها صوتًا وصورة. وأمام إصرارها وعنادها وعدم رضوخها انتهت علاقتها بالمخابرات، فلم تقبض مكافأة واحدة من مكافآت جهاز المخابرات؛ لأنها ببساطة لم تقم بعملية واحدة لحساب الجهاز، بعد أن تهربتِ من الردّ على نداءاته، وبعد أن اختفت عن العيون لفترة.

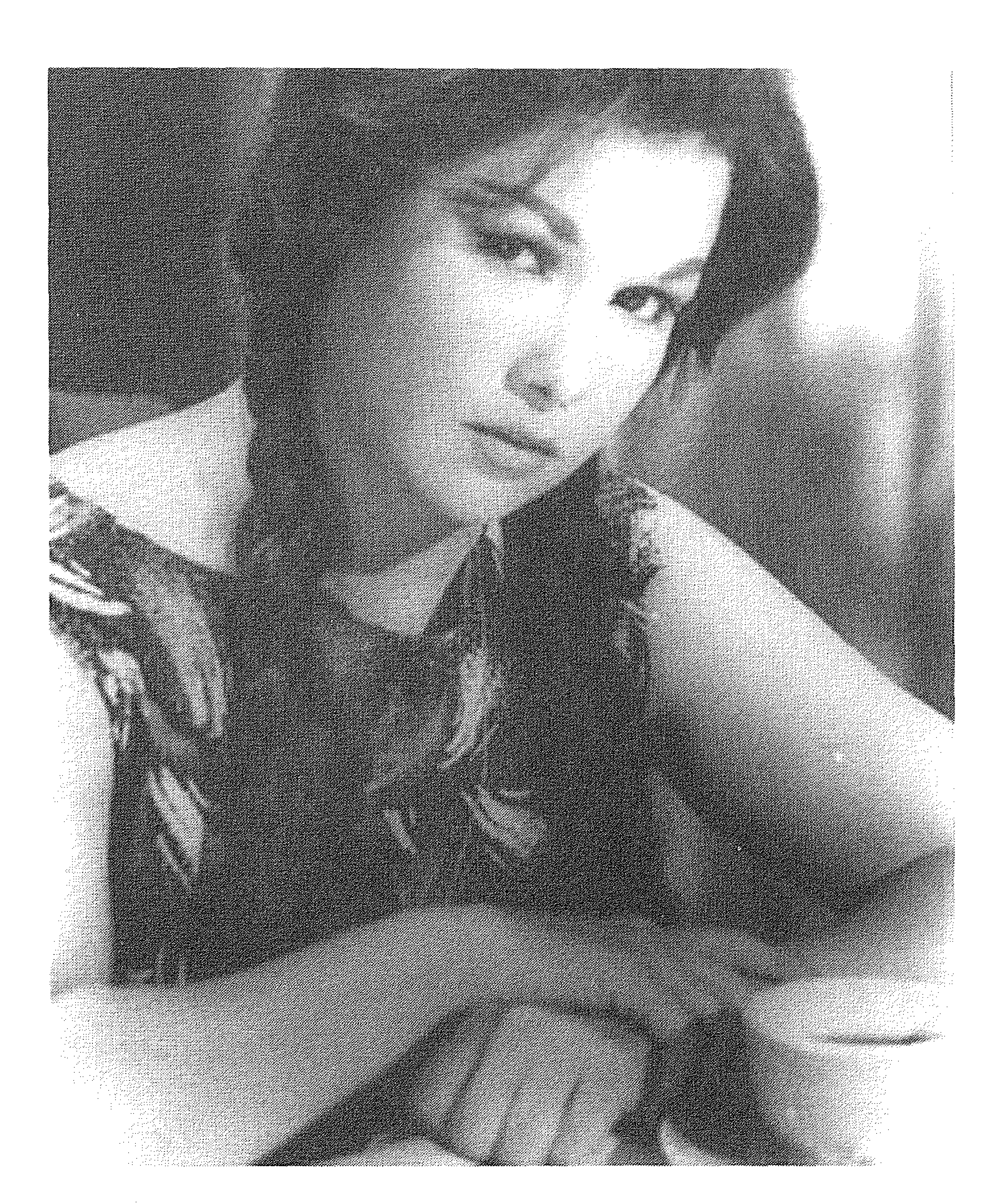
ولكن الصدفة وحدها عادت لتجعل مِن هذه النجمة ذائعة الصيت حديث كل بيت وكل محب لفنها عندما انتهت حياتها بعد ذلك نهاية غامضة بعد نحو أربعة عقود من هذه المغامرة القاسية.

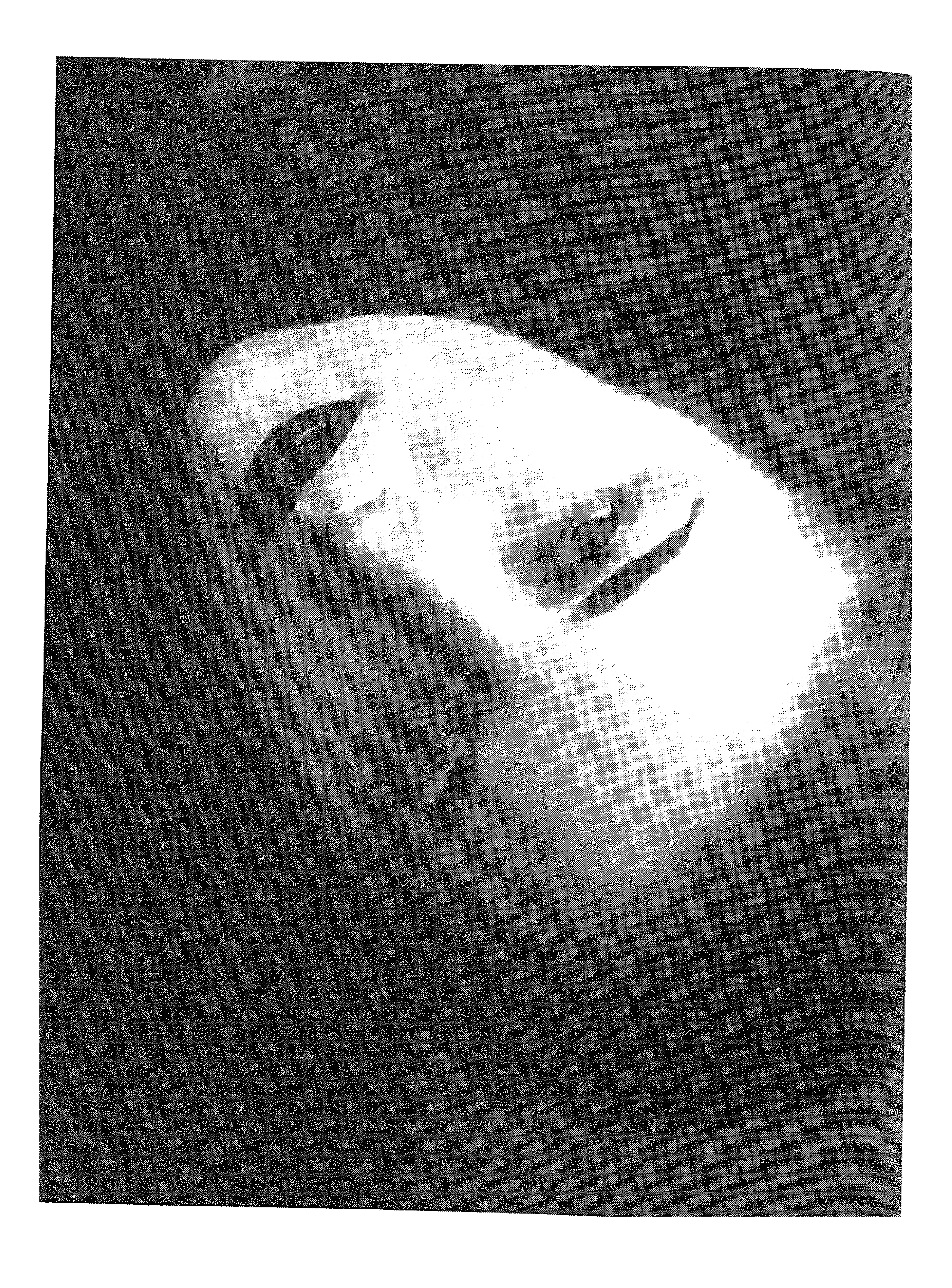
***














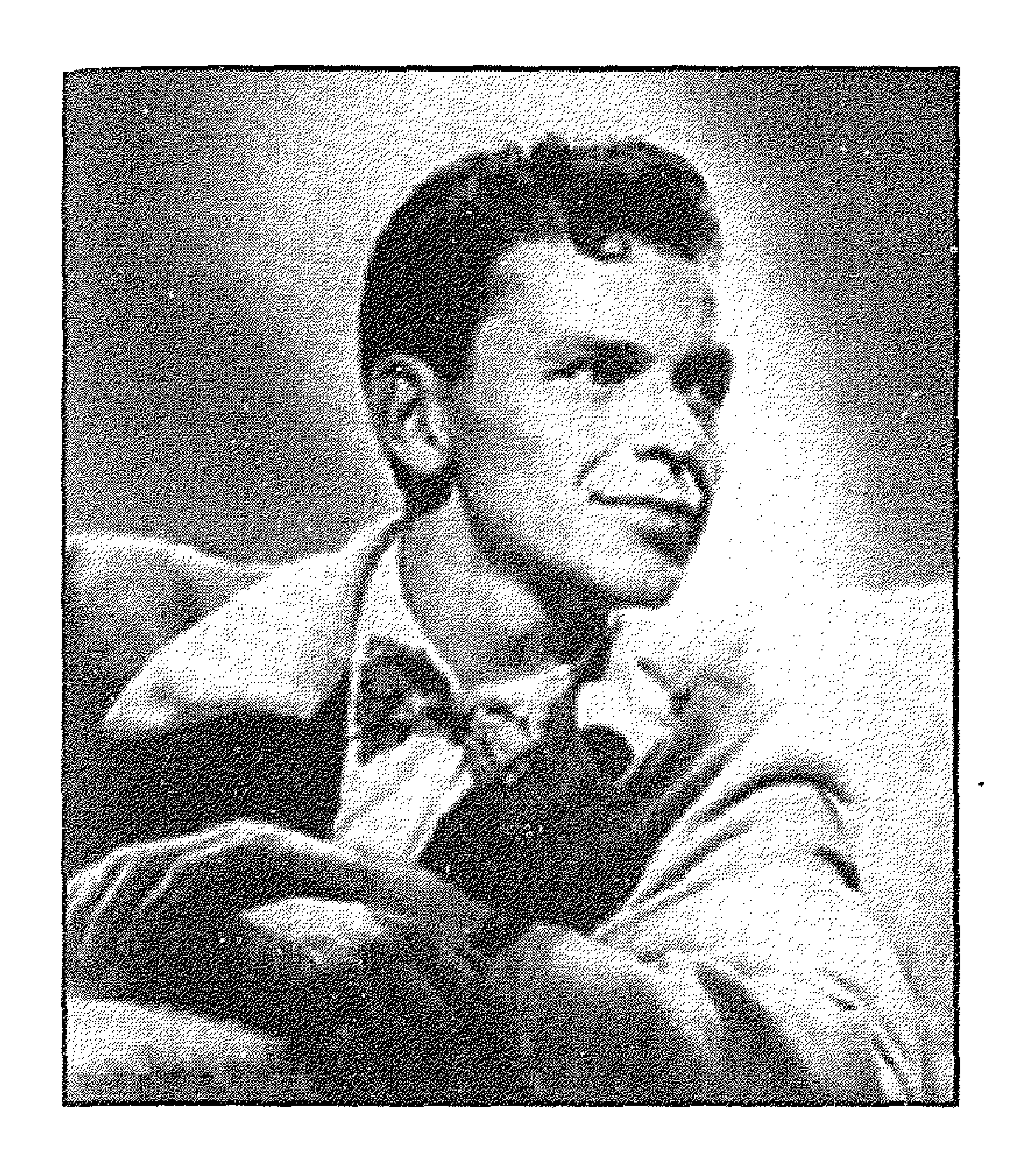


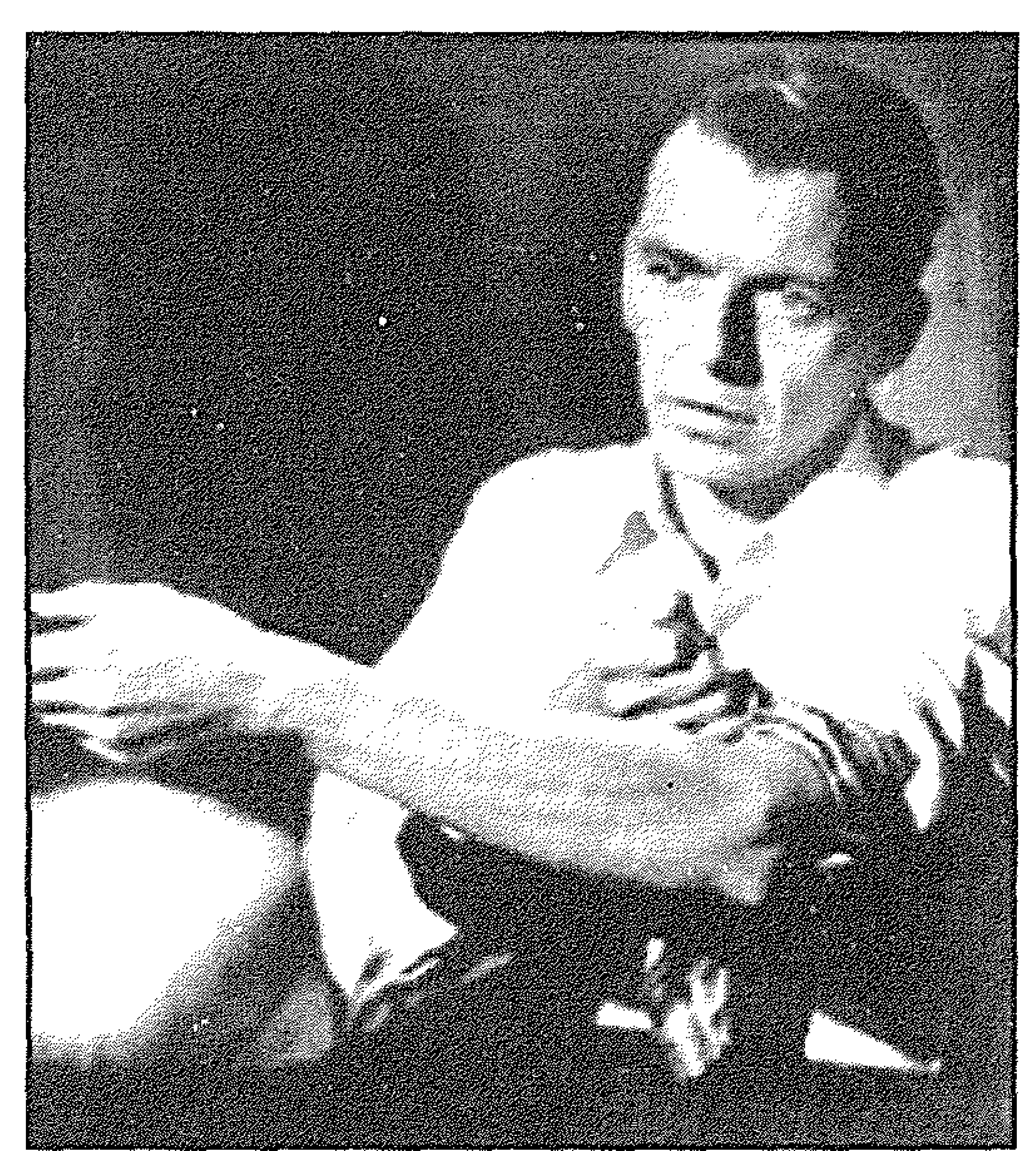














11

سعاد حسني والسؤال المحير

هل قتلها الموساد؟!

(وعرفت السندريلا حرفية الاختفاء عن عيون الناس.. إنها لا تقوى على مواجهتهم وهم ينادونها بـ [زوزو].. لا تعرف إن كان هي زوزو أم لا.. حدث لها هذا عندما تزامن ابتعادها فترة من الزمن عن زوزو مع زيارة ضيف ثقيل هو: المرض)

رغم أن غالبية الناس قد ترى عكس هذا الرأي، إلا أننا نعتقد أن سعاد حسني لم تكن محظوظة في حياتها.. نعم سعاد عاشت حياتها سلسلة من العذابات بدءًا من طفولتها التعسة الممزقة وسط (١٧) أخًا وأختًا، وفي صراعات لا تنتهي بين أب وأم، لا بل إن هذه الصراعات قد انتهت ولكن في طريق غير الذي يتمناه كل ابن وابنة، وتنتقل سعاد لتعيش مع زوج أمها الجديد الذي كان أكثر حنانًا معها.. ولكنها لم تكن لتنسى أو تنفصل تمامًا عن مشاهد العنف والمذلّة التي كانت تسيطر على جو أسرتها الأولى..

وسط هذا الجو نشأت سعاد حسني، وتشكلت الأطر العامة لشخصيتها، وهو ما لم تنجح نشوة الشهرة ولا حياة الأضواء أن تمحو من عقلها بؤس الطفولة وسنوات المراهقة الأولى التي امتلأت بالرفض والرغبة في الخلاص.

وإذا كان ضروريًا أن نصدق حكاية المشهد الأخير في حياتها ونسلِّم بأنها قد انتحرت، فلا بد أن نبحث عن جذور انتحارها، بدءًا من سنوات الطفولة ومشاهد العنف بين الأبوين.

و.. كبرت سعاد..

ونجحت..

ولمعت..

وكسبت المال وحب الناس..

ولكنها أيضًا كانت تتعذب..

فمع انطلاق الفراشة الملونة تحوم حول الأضواء، بل إن الأضواء ذاتها كانت هي التي تسعى إليها.. أو تنحاز إليها.. ولذلك كان بديهيًا أن تلفت نظر صائدي الفراشات الملونة الذين كان جلّ همّهم في تلك الفترة هو اقتناص الفراشات ووضع أجنحتها تحت المقصلة.

وبوضوح أكثر..

وسواء صَحَّت تلك الرواية التي تقول إن جهاز المخابرات بقيادة صلاح نصر قد استطاع أن يصل إليها وأن يضعها (مجبرة) في خانة (المندوبات)، أم لا، إلا أنه في الغالب فإن سعاد قد تعرضت لكثير من الضغوط وكثير من المضايقات – كغيرها – ومرة أخرى وجدت سعاد حسني نفسها تبحث عن.. الخلاص.

وإذا كانت قد نجحت في التخلص من هذه المحنة، فإنها وجدت نفسها تقع في غرام العندليب – عبد الحليم حافظ – ولسبب أو لآخر لم تستطع الزواج منه، أو إذا كان قد وقع هذا الزواج – على حد ترويج عدد من المقربين من النجمين – فإنه من المؤكد أنه لم يستمر ولم يثمر عن لحظات سعيدة لكليهما، وبالطبع فإن هذا قد سبب عذابًا آخر للسندريللا.

نعم.. لقد تزوجت بعد ذلك عدة مرات، ولكن الصدفة الأولى تبقى هي الأشد والأبقى تأثيرًا.

أما النصف الثاني من حياة السندريللا، فقد أصبح هو النصف الأسوأ من عمرها، عندما ذاقت طعم الفشل في كل شيء .. في الحب، وفي الزواج، وفي النجومية أيضًا، مع فشل صادف أحد أفلامها "الدرجة الثالثة" – هكذا اسم الفيلم – وعندما زارها المرض ولم يخرج من جسدها ولا من عظامها.. وعندما انحسرت الأضواء.. وتضخم الجسد – الذي كان رشيقًا رشاقة الغزلان.. ثم عندما ذاقت الغربة وجربت الوحدة، وتجرعت الاكتئاب..

ومرة أخرى راحت تبحث عن الخلاص.

لذلك لم تعِشْ سعاد حسني سوى لحظات قليلة من عمرها..

ورغم ذلك فإننا نشعر بعظيم الامتنان، وندرك تمامًا جمال وروعة هذه اللحظات التي عاشتها كفنانة مبدعة.

ونهتف جميعًا: ما أروعك يا سعاد.. يا سندريللا.. يا زوزو.

ولكنها أبدًا لم تكن محظوظة.

***

وعندي وجهة نظر – وإن كنتُ لا أملك دليلاً علميًا عليها، بل كل ما أملكه في هذا السياق هو بضع تجارب ومشاهدات متأملة – وملخص وجهة النظر هذه أن الإنسان –

ولـيس كـل إنسان – في بعض الحالات يستشعر – بشكل أو بآخر – مستقبله، وليس أدلّ على ذلـك مـن أن بعـضنا أحـيانًا يـشعر بوجـع غـير مفهوم، أو بحزن غير مبرر، ثم يعلن لبعض المقربين منه أن "شيئًا ما" سيحدث.. ثم يحدث.. بالفعل!

وفي الـسياق نكتـشف أن نهايـات "الحزانـى" هـي في الغالـب نهايات حزينة أيضًا، فهل الحـزن هـو "السبب" في تلك النهايات، أم أن شيئًا ما أخبر هذا الشخص بمستقبله فساهم في رسم ملامح الصورة الحزينة على وجهه.. بل وروحه؟!

المتأمل المدقق لعلامات "الساعات الأخيرة" في حياة المشاهير ممن نعلم حياتهم بكثير من تفاصيلها، يكتشف أن معظم أدركوا نهاياتهم قبل وقوعها، بل وبعضهم تحسّب لذلك!

ولأنهـا مجـرد نظـرية فلـسفية تحـتاج إلى مناقـشات وإلى ملاحظـات أدق وأعمـق، فإنـنا سنحاول فقط ملاحظتها على حالة النجمة الساطعة دومًا.. سعاد حسني..

فهـل كـان هـناك ربـط ما بين اكتئاب سعاد حسني المفاجئ وهي في فترة لا تقل خصوبة ولا مقـدرة عـلى العطـاء، وبين كونها تعيش الشهور الأخيرة في حياة أعظم شخصية احتوتها، وصـادقتها، وعلّمـتها، وشملتها بالرعاية والدفء والشعور بالحب والأمان.. وهي شخصية العملاق المتعدد المواهب صلاح جاهين؟

هل خافت سعاد أن تفقد صلاح جاهين ففقدته بالفعل؟

أم أن "رادارًا" خفـيًّا أطلعهـا بقـرب النـبأ المشئوم، فتحصنت له بجرعة واقية من الحزن والاكتئاب؟!

هل بداخلنا حقًّا هذا "الجهاز" الكاشف للمستقبل؟

أو بالأحرى.. هل هو متوافر داخل "بعضنا"؟

وإذا اسـتكملنا هذا التفسير، فلعله ينطبق أولاً على "صلاح جاهين نفسه، الذي دخل في قوقعة الاكتئاب بكامل إرادته، ورغم ما يتردد عن وجود أسباب قوية أدّت به إلى هذه النتيجة المحزنة، إلا أنه قد يكون خوف صلاح جاهين من هذه النهاية هو الذي قاده إليها سريعًا!

وقياسًـا: هـل كانـت تـشعر الـسندريللا بدنوّ نهايتها المفجعة على هذا النحو الذي صدم الملايين من عشاقها؟

هـل كانـت تعـرف مبكـرًا أنها ستلقي بنفسها – أو سيُلقي بها – ليهوي النجم الساطع، ويبقـى فقـط ضوءه المشعّ، تمامًا كما يخدعنا ضوء آلاف – أو ملايين – النجوم الساطعة في كل ليلة، ثم يصدمنا علماء الفلك بأنها رحلت..

هـل كانت تعرف السندريللا مبكرًا أنها – كنجوم أخرى – سوف تحترق على هذا النحو المفجع، ولن يبقى إلى ضوءها نراه ولا نستطيع أن نلمسه؟!

هل اكتأبت لأنها كانت تشعر بالخطر..؟ أم لأنها كانت على يقين من النهاية؟

ورغـم أنـنا لـسنا مـن المذعـورين القائلـين بأن وراء كل ما لا نستطيع تفسيره – فورًا – مؤامـرة مـا، ونؤمن بأن نظرية المؤامرة غالبًا ما تكشف عن فكرة مهزوزة إذا لم تكن تستند إلى الدلـيل القوي، رغم ذلك فإننا نؤمن أيضًا بأن كل شيء يجب أن يناقَش.. يحلَّل.. يوضَع تحت المجهر.. أو تحت شمس المعرفة.

كانت النهاية المفجعة للسندريللا سعاد حسني أكبر من احتمال عشاقها..

وكما يحدث لكل الشخصيات الاستثنائية في التاريخ، راح البعض ينسج حولها الحكايات والأساطير..

قالوا إنها سقطت بعد أن فقدت توازنها، ثم وجدوها حكاية عادية لا تليق بشخصية غير عادية فعدّلوا في الخبر: بل انتحرت سعاد.. أيضًا لم تكن هذه النهاية تُرضي البعض فقالوا: بل قام الموساد – جهاز المخابرات الإسرائيلي – بتصفيتها!

أمـا الأطراف والأغرب والأكثر إثارة فهو ما قاله شاعر عامية مرموق: لقد قتلها مسئول مصري!!

تعالوا نقرأ الحكاية..

ولكـي نتعـرف أكثـر على ما حدث لسعاد حسني تعالوا نقرأ هذه المشاهد من حياتها من البداية حتى اللحظات الأخيرة..

فعـن الجـو الذي نشأت فيه السندريللا يأتي هذا المشهد الذي يصِفه محمود عوض: قال: (في سـنوات سـعاد كـان الـزمن بخيلاً وسخيًا، حليفًا وعدوًا، دافعًا لها وسيفًا عليها. هي من أسرة رقـيقة الحـال ضـمّت (١٧) أخًـا وأخـتًا.. الأب خطـاط موهـوب لكنه مزواج، البنت

الـصغيرة اللهلـوبة تعـيش في خلافـات دائمة بين أبوين مطلقين.. في السياق أصبحت شقيقة كـبرى لهـا مـن الأب – هـي نجاة – مطربة في الإذاعة.. وشاركت سعاد في صغرها في برامج "بابا شارو" للأطفال.

أمـا الـتحول الكبـير في حـياتها فقـد جاء من مكتشفها عبد الرحمن الخميسي، وهو رجل مـتعدد المـواهب: فنان وكاتب وموسيقي وشاعر ومترجم، وصاحب عين مدربة على التقاط المـواهب، وبنفس هذه العين رأى الخميسي في سعاد "نعيمة" الشخصية الفولكلورية المعروفة باسـم "حـسن ونعـيمة"، التـي أعـاد الخميسي صياغتها لتصلح للسينما بعد أن قدمتها كريمة مختار للإذاعة عن نص عبد الرحمن الخميسي أيضًا.

قفزة أخرى:

وفي مكـتب عـبد الـوهاب الـذي قـرر التـصدي لإنتاج أول أفلام سعاد حسني "حسن ونعـيمة" ومـن إخـراج بـركات – مخـرج أفلام فاتن حمامة – وقفت السندريللا الجديدة بكل جرأة تقول لعبد الوهاب: والنبي يا أستاذ.. أنا نفسي أغني كمان في الدور ده!

وبكل تقل عبد الوهاب سألها: إنتي ليكي في الغناء؟

قالت: أمّال إيه يا أستاذ... وانطلقت تغني "كل ده كان ليه".

ولكـن بحـرص عـبد الـوهاب المعروف: قال: نأجل موضوع الغناء شوية.. خبطتين في الرأس توجع.

القفـزة الكـبرى في حـياة الـسندريللا كان عنوانها "زوزو"، وزوزو اسم أشهر شخصية صـنعها صلاح جاهين وحققت القفزة الكبرى في تاريخ وحياة السندريللا، لدرجة أنها كانت تـسجِّل عـلى تلـيفونها المحمـول جملة تقول فيها "أنا زوزو النوزو كوانوزو"، فقد كانت تعتز بـنجاحها الـساحق في هـذا الـدور. ونحـن الآن في جلـسة على النيل جمعت بين سعاد حسني وصـلاح جاهـين لـيتكلم معهـا عـن فكرة هذا الفيلم الذي يأتى في أعقاب الجراحة الشاملة للحياة المصرية عقب نكسة ١٩٦٧، فكان هذا الفيلم الذي ابتعد عن السياسة ووجع القلب، واختار سرد قصة حب بين فتاة بسيطة وشقية: ترقص وتغني وتمثل و.. تحب!

ووصـف صـلاح جاهـين وبحـقٍّ أنـه المكتـشف الثاني لسعاد حسني أو "السندريللا"، وعـندما رأى كـمال الطـويل سـعاد حسني تحمّس لها ووضع لها لحن "يا واد يا تقيل" اللحن الأساسي للفيلم الذي يعبّر عن مضمونه، والذي أصبح قنبلة الموسم!

وظل دور "زوزو" هو اللمسة السحرية في علاقة سعاد حسني مع جمهورها، وظلت سعاد تستعيد كثيرًا من ذكرياتها مع "زوزو" حتى بعد أن قدمت العديد من الأفلام بعضها نجح جدًّا وبعضها "عادي"، وحتى فيلمها الذي يعدّ تنويعات على تركيبة "زوزو"، وأقصد به "أميرة حبي أنا"، الذي وضع ألحانه كمال الطويل (كاملة)، ورغم نجاح "الدنيا ربيع والجو بديع"، إلا أن زوزو كان له مذاق آخر في داخلها.. وعرفت السندريللا أو "زوزو" حرفية الاختفاء عن عيون الناس.. إنها لا تقوى على مواجهتهم وهم ينادونها بـ"زوزو".. لا تعرف إن كانت لا تزال زوزو أم لا، حدث لها هذا عندما تزامن ابتعادها عن زوزو فترة من الزمن، ومع زيارة ضيف ثقيل هو: المرض.

وهنا يقول محمود عوض: "مع الزمن استجدّ خصم آخر: المرض، فمع إصابة سعاد حسني بشرخ في العمود الفقرى وعلاج خاطئ في البداية، أصبحت آلامها لا تطاق، بعدها أصبحت نفس الأدوية التي تسكن آلامها هي التي تسبب لها زيادة الوزن، وهو ما يؤدي بدوره إلى ابتعادة عن حالة اللياقة البدنية التي تريدها لنفسها، وكلما نظرت سعاد حسني في مرآتها تبحث عن "زوزو"، تجدها أبعد.. وأبعد.. الحلم يهرب وفي فراغه يجيء شيء آخر: الاكتئاب.

ومن بين ٨٢ فيلمًا سينمائيًّا بدأ التردد في العلاقة ما بين سعاد حسني والكاميرا والجمهور اعتبارًا من فيلم "المتوحشة" الذي أنتجته سعاد لنفسها "١٩٧٧" واضطرت إلى تصوير نهايته مرتين مختلفتين، أما فيلمها الأخير فهو "الراعي والنساء" الذي كان أكبر همّ سعاد خلال تصويره هو إخفاء متاعبها الصحية التي كانت قد استشرت مع زيادة الآلام.

وبعدها بدأت سعاد رحلات العلاج ما بين باريس ولندن، ومع زيادة وزنها أصبحت تصوم عن الصور التي أصبحت من بين ممنوعاتها. وحالة كهذه لم تكن تغري أي جهاز مخابرات – الموساد أو غيره – على الاقتراب من صاحبتها!

لقد وصل الأمر في غربة سعاد حسني وانطوائها وانزوائها بعد عشر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة، أن تموت بالسقوط من شرفة بالطابق السادس من بناية ضخمة بها عدد من المصريين لم يدر أحد منهم بوجود سعاد بينهم.. سعاد التي كانت لا تفارقها الفلاشات ولا نظرات المتطفلين.. أصبحت وحيدة.. بإرادتها.. منكسرة – بغير إرادتها – تضع النظارة السوداء على عينيها لتتخفى عن أعين المحبين قبل المتطفلين.

ونتتقل بسرعة إلى مشهد آخر اختلطت فيه الكوميديا بالمأساة، وبالرغم من سرعة انتقالنا إلى هـذا المـشهد، إلا أن مـا بـين المشهدين – السابق والحالي – مَرّ على محبي سعاد كالدهر من فـرط الحـزن الهستيري الذي أصاب كثيرًا من عشاقها، المشهد تدور أحداثه في صالة الوصول بمطـار القاهـرة الدولي حيث عدد من الفنانين والجمهور في انتظار جثمان سعاد.. الآن وصل الجثمان بمـصاحبة صـديقتها التي عاشت السندريللا في شقتها ساعاتها الأخيرة.. المفاجأة في المشهد هو تحول الأنظار من ذلك الصندوق الكئيب الذي يضم بين جنباته المُظلمة جثة سعاد وهـي لا تـزال سـاخنة – إن صـحّ التعبـير – إلى خـناقة.. نعم خناقة بين عدد من رجال الفن وحريمه وبين صديقة سعاد – واسمها نادية يسري – وتتناثر الاتهامات ما بين القتل والتدبير للقـتل، أو عـلى الأقـل إخفـاء المعلومات.. ويتم بالفعل توجيه اتهام رسمي لأجهزة التحقيق بهذا المعنى!

ووصـل الأمر إلى حد توجيه أصابع الاتهام تجاه جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، وهـنا يعلّق الكاتب محمود عوض قائلاً: "الغريب أن الذين أفتوا بذلك هم الذين يستسهلون إعطـاء الموسـاد ما لا تستحقه.. وهو كثير.. بينما هم في الوقت نفسه يغضّون الطرف عما تقوم به "الموساد" فعلاً.. وهو خطير..

ويمكـن إضـافة بعـض "الأصوات" إلى الصورة في هذا المشهد، فالبعض قال إن جيران سـعاد – من العرب والخواجات – قد سمعوا أصواتًا من الخبط والرزع، وأن هذه الأصوات العالـية استمرت لـنحو خمس عشرة دقيقة، وبعدها جرى سقوط أو إسقاط سعاد من الطابق الـسادس، وأضـاف هـؤلاء – وهـم مـن أنـصار نظـرية التآمـر عـلى سـعاد لحساب الموساد الإسرائـيلي – إن لدى الشرطة البريطانية بلاغًا من هؤلاء السكان الجيران هو في حد ذاته أحد أدلـة الاحـتمالات الجنائـية في مـوت سعاد حسني. ولم يذكر أحد اسمًا واحدًا لأولئك الجيران الـشاكين، وبالـتالي فالـباب لا يـزال مفتوحًا لكي تصبح الشرطة – بدورها – متواطئة في قتل سعاد حسني.

والكاتـب محمود عوض يرى أنه كان الأجدر بأقرباء السندريللا أن يتوجهوا بالشكر إلى تلـك الـسيدة المـصرية القادمـة مـع جـثمان سـعاد حـسني، بدلاً من توجيه الاتهام لها بإخفاء مجوهـرات سـعاد ومذكراتها المكتوبة.. وإن كان – بصفته من المقربين – يؤكد أن سعاد لم تكن في أي وقـت مـن هـواة المجوهـرات.. ولا كانـت أيـضًا ضليعة مـع الورق والقلم والكتابة

والتأملات الفلسفية.. كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار في العطاء الفني يتناقض أصلاً مع فكرة تسجيل مذكرات، والحكاية - كما يفسرها محمود عوض - أن صديقة سعاد جاءت مع جثمانها في الطائرة بكل متعلقاتها وحقائبها، ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت منذ البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيًّا، فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفوري.

وهكذا تحولت الملهاة إلى مأساة سوداء، والملهاة جوهرها ركوب الموجة أو بلغة السينما سرقة الكاميرا.. سرقتها من الجمهور العريض الملتاع ومن سعاد حسني نفسها جوهر المأساة، وهي التي عاشت طوال عمرها تسرق الكاميرا، أو على الأدق كانت الكاميرا تسرق سعاد من نفسها، فقد كانت الكاميرا تنحاز إلى سعاد على طول الخط..

وهكذا استطاع محمود عوض أن ينسف فكرة دور المخابرات في موت سعاد حسني، بل إنه استطاع - بمهارته في الرصد والتحليل ومن واقع قربه الشديد من السندريللا - أن يسخر من الفكرة ويجعلها مجرد فكرة بلهاء هدفها سرقة الكاميرا في مشهد "جنازة" حضره آلاف من محبي سعاد بالإضافة إلى عدسات الصحف وشبكات التليفزيون. وإن كان هناك صوت من أقارب السندريللا قال مؤخرًا بأن هناك جريمة قتل وقعت بهدف السرقة، وبالتالي خفَت صوت الاتهام بالعمل المخابراتي.

خارج الكادر..

مع خروج عشرات الآلاف من الشبان في وداع سعاد حسني بالقاهرة.. كان شلال الحب يحيط بها من جديد.. وكانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة. الرسالة هي: إن الفن ممتع.. ومبهج للجميع، والمشتغلين بالفن في قلب عشاقه.

لقد كانت الدموع في عيون الجمهور صامتة. وناطقة.. دموع عرفان وسعادة أعطتها لهم سعاد حسني وكلّ مَن صنعوا مشوارها، وهي كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسني كانت تستطيع إعطاء المزيد.

وحتى كتابة هذه السطور لم تحسم إسكتلنديارد الموقف في البلاغ المقدم من أسرة سعاد حسني، ولم تقل حتى هذه اللحظة كلمتها الأخيرة، إلا أننا نميل إلى الرأي الذي يقول به الكاتب محمود عوض من عدم وجود دليل - قوى ولا ضعيف - لتورط جهاز مخابرات معادٍ

في مـصرع سـعاد، وإن كانـت مـثل هـذه العمليات المشبوهة ليست بعيدةٍ عليه، ولكن مبدأ "المصلحة" هنا غير موجود من أصله.

ولكنـنا – في السياق نفسه – نجد أنفسنا غير مضطرين على الإطلاق لمناقشة وجهة نظر أطلقهـا الـشاعر أحمد فؤاد نجم في أحد برامج الفضائيات اللبنانية على الهواء مباشرة في حلقة استثنائية مـن الـبرنامج، كـنت شخـصيًّا أتابعهـا وأنـا مـا بين الضحك الهستيري وبين عدم التـصديق، بعـد أن تحـولت "الخـيالات" إلى شيء يـذاع ويـناقش عـبر الأثـير وأمام عشرات الملايـين من المشاهدين الطيبين، فقد كان ما يقوله العم "نجم" شيء أشبه بجلسات المصاطب التي غاب عنها المنطق!

وبقـدر مـا كانـت تمتعـنا سـعاد حسني بفنها الراقي أمام الكاميرات، بقدر ما كانت تتألم خلف الكواليس..

كثـيرون يعلمـون نـوبات الاكتئاب التي كانت تسيطر على نجمتنا الراحلة، فتقف حائلاً بينها وبين الاستمتاع بحياتها على النحو الذي تريده.

لـيس هذا فقط.. بل كان ذلك يقضي على كل رغبة بداخلها للعمل، أو لرؤية الأصدقاء، أو ممارسـة مـتعة الحـياة، وهـذا هـو سر الظهـور المفاجـئ لـسعاد حسني بنفس قوة الاختفاء المفاجئ.

ورغـم أن قليلـين هم الذين يستطيعون أن يتوصلوا إلى سر اكتئاب سعاد حسني، إلا أن الكثـيرين تفهمـوا وتعاطفـوا مـع الظـروف النفـسية الـصعبة التي مرت بها عقب حالة عدم التوفـيق في أحـد أعمالها الفنية، ثـم ازداد الأمر سوءًا بعد التغييرات الشكلية التي بدأت تقلقها وهـي أشـد مـا كـان يـشغلها.. أعنـي صـورتها في عـيون عـشاقها.. فهل كانت تكتم أسرارًا بداخلها تعذبها وتتعذب معها؟

أم أن (المستقبل) كان هو هاجسها الأول والأخير؟

وفي محاولـة لفهم أعماق سعاد حسني النفسية دار بيني وبين الدكتور عادل صادق – عالم الـنفس المعـروف – هـذا الحـوار، حـول سـطوع شـمس نجوميتها وأفـول نجمهـا، الحـياة والرحيل.. الغربة والعزلة..

* قلت: هل كانت سعاد تتمتع بكاريزما القبول التي يتمتع بها بعض كبار المشاهير؟.. وما هي درجة خصوصية هذه الكاريزما في حالة سعاد؟

- سعاد حسني - على وجه الخصوص - كان لها كاريزما خاصة؛ أي قبول جماهيري واسع وقدرة على التأثير.. وهذا هو معنى الكاريزما.. القبول والتأثير.

والقبول قد يصل إلى درجة الحب، فيصبح المشهور زعيمًا أو فنانًا موضع حب لدى الجماهير، وحظي بذلك فقط جمال عبد الناصر، كما حظيت بها أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وسعاد حسني.. فقط لا غير!

* تساءلت: ما سر هذه الكاريزما التي تجعلنا نحتفظ بصور سعاد حسني - ومَن ذكَرْتَ - فوق أسطح مكاتبنا، ونزين بها جدران بيوتنا، ومِن قبل كل ذلك ومن بعده نطبع صورها في قلوبنا، فنبدو كالمراهقين المتعلقين بنجومهم.. فما سر سعاد حسني تحديدًا؟

- يقول الدكتور عادل صادق وهو يتعمق في السؤال ليمنحنا أدق إجابة ممكنة: سر كاريزما سعاد هو شحنة التفاؤل التي كانت تدفع بها إلى نفوس الناس، فهي مرحة إلى أقصى حد، وبسيطة أي قريبة من الجماهير العريضة، ولذا اكتسبت شعبية ضخمة، وكانت ترضي كل احتياجات الجمهور من الفن: رقصًا وغناءً وتمثيلاً. وكان أكثر ما يميز أداءها "الطبيعية".

* قلت: هل هناك عوامل أخرى متعلقة بشخصيتها، ساهمت في تشكيل نجومية سعاد حسني؟

- سر نجوميتها أنها فذّة.. موهبة بلا حدود. تكاد تكون أكثر فنانة في عصرها وما قبل عصرها وما بعد عصرها.

ثانيًا: هي تتمتع بوجه ليس جميلاً فحسب ولكنه ودود.

ثالثًا: ابتسامتها تجعلك تنشرح.. انشراح الصدر.

رابعًا: إنها فنانة شاملة.

* سألت: إنه أصبح من المألوف أن نقول عن فنان ما أو فنانة ما إنه نجم الشباب، وذاك نجم جيل الآباء - مثل محمد عبد الوهاب - إلا أننا في حالة نجمتنا سعاد حسني نلاحظ إجماعًا من الشباب والكبار عليها، لدرجة أن حلقات تليفزيونية تعد العمل التليفزيوني

الوحيد لها – وهو بعنوان: "هي وهو" – قد أضاف لها جمهورًا من الأطفال الصغار، إلى جانب عملها السينمائي المهم "صغيرة على الحب" الذي أدّت فيه شخصية طفلة وقدمت فيه استعراضات باهرة.. كيف اجتمع عليها مزاج الصغار والكبار؟

– يقول الدكتور عادل صادق: أجمع عليها الشباب والكبار لأن الشباب توحّدوا معها، والكبار عاشوا من خلالها شبابهم.. كانت رمزًا للشباب والحياة والحب والمرح والتفاؤل والشقاوة.. كانت رمزًا للجمال.. رمزًا للحياة.. رمزًا للبساطة.

هكذا كانت عبقرية سعاد حسني.

* هل ترى معنا جاذبية خاصة في ابتسامة سعاد حسني، لدرجة أنه من النادر أن نلمح صورة لها في أرشيفها وهي لا تبتسم؟

– ارتبطت سعاد حسني بالبهجة لأن هذه هي طبيعة شخصيتها، وهي شخصية "انبساطية".. هذا هو اسم شخصيتها في الطب النفسي، وهي شخصية تتسم بالمرح الشديد، وسرعة البديهة، والحضور والتأثير على الجماعة ودفعهم إلى الابتسام، بل والضحك من القلب، وتجمع الناس حولها، وهي لا تعيش إلا مع الناس وبالناس.. لا ترى إلا الجانب الجميل في الحياة، وتقنع الناس بالجمال والحب، واكتشف فيها المخرجون هذه الموهبة فاستثمروها في هذه النوعية من الأدوار.

وهكذا فعل كمال الطويل؛ فألحانه لها شديدة المرح والتفاؤل، وفي رأي كمال الطويل أن سعاد حسني هي أعظم مَن غنّت له.

* رغم أن شخصيتها مرحة وانبساطية كما يسميها علم النفس، ومع ذلك ينجح الاكتئاب اللعين في اختراق عقلها ووجدانها إلى هذا الحد؟

– نعم، وللأسف الشديد، فإن أصحاب هذه الشخصية معرضون للاكتئاب، فالأشخاص شديدو المرح قد يصابون بالاكتئاب.. وهذا هو ما حدث مع سعاد حسني.

* كان صلاح جاهين هو الصديق الصدوق لها، وكان أستاذها والقارئ نيابة عنها، والمؤنس لوحدتها، والنافذة إلى أفكارها.. كيف ترى اجتماع هذا الثنائي المبدع على موجة واحدة؟

– سعاد حسني أكملت في صلاح جاهين الجانب الذي يفتقده في نفسه، صلاح جاهين كان شخصية اكتئابية، أما سعاد حسني فشخصية انبساطية، والشخصية الاكتئابية تحتاج إلى شخصية انبساطية لترى بها الجانب المتفائل من الحياة، ولهذا فإن صلاح جاهين ارتبط بها ارتباطًا شديدًا، وهو ارتباط "الحاجة" الذي تحول إلى صداقة وحب.

واكتشفت سعاد حسني في صلاح جاهين الجانب الاكتئابى الذي كان قابعًا في داخلها، واكتشف صلاح جاهين أن بداخلها اكتئابًا مثلما في داخله اكتئاب..

ولذا كان صلاح جاهين أنيسها وجليسها لأن الوحيد الذي كان يفهمها.. الوحيد الذي رأى الاكتئاب بداخلها..

كل الناس لا تعرف عن سعاد حسني إلا الجانب المبهج، أما صلاح جاهين فعرف كلا الوجهين، ولذا استراحت له سعاد حسني، فنحن نستريح للأشخاص الذين يفهموننا، ولقد أصيبت سعاد حسني بعد ذلك بنفس المرض الذي أصيب به صلاح جاهين وأودى بحياته مثلما أودى بحياتها..(؟).

* هل تركيبة سعاد حسني، بسنوات الانكسار بعد عقود من النجاح، يمكن أن تؤدي بها إلى الانتحار؟

– سعاد حسني كانت مصابة بمرض الاكتئاب، وهو مرض دوري يأتي في صورة نوبات قد تفصلها سنوات، ويشعر المريض في نوبة الاكتئاب بالحزن وفقدان الرغبة وفقدان الحماس في كل شيء .. ينعزل.. ينطوي.. يصاب بالعجز.. يشعر بالذنب.. يؤنب نفسه.. يضعف، فينكسر، ويفكر مرض الاكتئاب في الانتحار حينما تصبح الحياة معذبة، حين تنسد كل الطرق.. حينما يصبح كل شيء شديد السواد، حين لا يجد مهربًا ولا مفرًّا، ويكون الانتحار هو الوسيلة الوحيدة للخلاص (هل هذا هو ما حدث مع سعاد؟!).

* هل اكتئاب (الفنان) يكون أشد فتكًا؟

– الفنان الحقيقي أكثر الناس عرضة للاكتئاب، ونظرًا لطبيعة عمله فإن اكتئابه يكون أشد، وخاصة إذا أَفَلَتْ شمسُه وانحسرت عنه الأضواء (مرة أخرى هل هذا هو ما حدث مع سعاد؟!).

وأطلقتُ سؤالي الأخير في اتجاه دكتور عادل صادق فقال:

نعم.. هذا هو ما حدث مع سعاد حسني، وخاصة بعد أن زاد وزنها وخافت على صورتها في عيون الناس.

* ما حجم الخسارة برحيل سعاد حسني التي تمثل تجربة غاية في الثراء على المستويين الفني والإنساني؟

- أكثر ما خسره التاريخ هو عدم كتابتها لمذكراتها نظرًا لثراء حياتها واتساعها، وعمق علاقاتها وخبراتها على كل المستويات.

ويبدو من اتجاه الريح في هذا الحوار أنه يسير في طريق يفترض منذ ناصيته انتحار سعاد حسني بسبب اكتئابها وانعزالها وانكسارها، وهو افتراض لا يأتي على هوى من يقولون بمصرعها بفعل فاعل؛ لأن النهاية الثانية التي تربط النهاية بأعمال المخابرات والقوى الخارقة تتفق أكثر مع جو الأساطير، الذي يحب الناس - ومنهم كثير من الفنانين أنفسهم - أن يربطوا بينه وبين الأسماء الاستثنائية في التاريخ.

12

عملية سمير الإسكندراني

(مـا كان منه إلا أن اصطادهم بعد أن ظنوا هم أنهم قد نجحـوا في اصـطياده، وعـاد مـسرعًا إلى مصر دون أن يثير ريبـتهم، وتـوجه إلى مبنـى المخابـرات [العـربية] العامة في القاهـرة وأطلعهـم عـلى الخطـوط العامـة ثـم طلب مقابلة رئـيس الدولـة [جمـال عـبد الـناصر] شخصيًا ليطلعه على التفاصـيل.. وكانـت التفاصـيل أكثـر من مثيرة.. إنها قصة المطرب سمير فؤاد الإسكندراني)

كانت قضية الجاسوسية التي فجّرها نجم الغناء المطرب سمير الإسكندراني، ولعب فيها دور البطولة في نهاية الستينيات، والتي كشفت من بين ما كشفت عن وطنية هذا الشاب الذي كـان يتفجـر بالموهـبة ويمتلئ بالطموح، ولكن طموحه وشبابه المندفع لم يكن أحدهما عاملاً مـن عوامل توريطه في الفخ الذي نُصب له في إحدى المدن الإيطالية حيث كان يدرس الأدب الإيطـالي، بـل إن وطنـية سـمير الإسـكندراني كانـت هي المحرّض والمشجّع له ليكشف عن شـبكة تجـسس إسرائيلـية كـان الموسـاد قد زرعها في عدة عواصم عالمية منها بالطبع القاهرة. ومـن بـين أخطـر مـا كانت تهدف إليه الشبكة التي تعمل بتخطيط وإشراف مباشر من جهاز الموسـاد الإسرائـيلي، اغتيال الزعيم والرمز المصري جمال عبد الناصر ومعه المشير عبد الحكيم عامـر باعتـباره مـسئولاً عـن جيش الدفاع المصري وقتها.. وهو الخبر الذي هز مصر كلها في ذلـك الـوقت، ولم يُـدْلِ بتفاصـيله الفـنان سمير الإسكندراني إلا في حضرة الزعيم جمال عبد الناصر، وفي الفيلا المتواضعة التي كان يسكنها في منشية البكري بالقاهرة.

واسـتطاع سـمير عـن طـريق خطـة محكمـة وضـعها جهاز المخابرات المصري، أن يغرر بعمـلاء الجاسوسـية الإسرائيلـية، وأن يجذبهم من أوكارهم في إيطاليا والنمسا وعدّة عواصم أخرى ليقعوا في قبضة المخابرات المصرية.

تظاهـر سـمير أمـام عمـلاء الموساد الذين كُلفوا بتجنيده أنه ساخط على أوضاع الشعب العـربي وعـلى قـياداته، وسـاعده في ذلـك أسـلوب حياته المتحرر كشاب يعشق الحياة، يسهر ويرقص ويمرح، بعكس الشباب المنكسر، المنطوي، الخائف من المجهول في بلاد الغربة..

وكانـت النتـيجة أن وثـق به عملاء الموساد وضموه إلى منظماتهم وشبكاتهم المخربة التي كانـت تسعى في الأرض فسادًا، وظنوا أنهم وجدوا في "الإسكندراني" ضالتهم كعميل يمكن أن يخـون بلده وأهله وناسه ورموز هذا البلد، فما كان من سمير بعد أن أيقن خساسة أهدافهم وحقيقـتها، وأنهـم نـاس يعملـون على زعزعة استقرار بلده، وأنهم يطلبون منه خيانة الوطن والمبادئ والقسم الذي يتلوه كل وطني بقلبه تجاه وطنه منذ لحظة الوعي..

مـا كـان منه إلا أن اصطادهم بعد أن ظنوا أنهم قد نجحوا في اصطياده، وعاد مسرعًا إلى مـصر دون أن يثـير ريبـتهم، وتـوجه إلى مبنـى المخابـرات (العـربية) - العامـة - في القاهـرة وأطلعهـم عـلى الخطوط العامة، ثم طلب مقابلة رئيس الدولة - جمال عبد الناصر - شخصيًّا ليطلعه على التفاصيل..

وكانت التفاصيل أكثر من مثيرة..

إنهـا قـصة سـمير فـؤاد الإسكندراني، الذي طُلب منه أن يستمر في لعبته وخداع الموساد حتـى سـقطت سـت خلايـا تعمـل لحسابها وقدمـوا جمـيعًا إلى القـضاء الـذي حكم بإعدام بعـضهم.. وكـان سـمير قـد سافر إلى روما لدراسة اللغة الإيطالية، والطريف أن قرار السفر والدراسـة كان بتأثير حبه لبنت الجيران واسمها "يولاندا"، حيث كانت هناك عاطفة مشتركة بيـنهما، وكثـيرًا مـا اشـتركا في نزهات على كوبرى قصر النيل، وأراد أن يتعلم الإيطالية ليجيد الـتفاهم معهـا، خاصـة أنـه أنهـى دراسـته بتفوق في كلية الفنون الجميلة (سمير فنان تشكيلي رائـع)، ومـن أجـل عـيون يـولاندا أحـب سـمير كل ما هو إيطالي، وظفر بمنحة لتعلم اللغة الإيطالـية في بيروجـيا - إحـدى المـدن الإيطالـية التـي تـبعد عن روما بمقدار مائتي كيلومتر تقـريبًا، وهي مدينة جبلية سياحية ساحرة - وأتقن سمير اللغة الإيطالية، واستطاع أن يلتحق بمهـنة مـدرب سـباحة للناشئين فهو أيضًا سباح ماهر، ومع ظهوره بقوة في المجتمع الإيطالي شعر بنظرات حقد من جانب بعض الطلبة اليهود بالتحديد.

لمس ذلك عندما كان الطلبة العرب يحتفلون بعيد الثورة المصرية في إحدى قاعات جامعة بيروجـيا، وإذا بالتـيار الكهربائـي ينقطع فجأة ليكتشفوا أن ذلك تم بفعل فاعل، وأن الفاعل هو أحد الطلبة الإسرائيليين.

إلى أن بدأت خطوات استمالته أو بالأدق تجنيده!

كان سمير يلعب البلياردو في نادي الجامعة، ولاحظ رغم انهماكه في اللعب أن شخصًا ما ينظر إليه في اهتمام بالغ، وعندما تلتقي نظراتهما فإن الشخص الآخر يبتسم، وبدأ التعارف:

- أنا سليم.. أدرس الذرّة في لندن.

- وأنا سمير أدريس اللغة الإيطالية في بيروجيا.

أول ملاحظة لسمير على هذا الشاب أنه يتحدث اللغة العربية بطلاقة، ويحفظ الأمثال الشعبية المصرية عن ظهر قلب، وفي الوقت نفسه يجيد ثلاث لغات فضلاً عن العربية هي: الفرنسية والإنجليزية والإيطالية.

أما الملاحظة الثانية على هذا الشاب الغامض فهي أنه يجيد الألعاب السحرية، ومعه سرب من الفتيات الرائعات الجمال، وأنه ينفق عليهن ببذخ.

أما عن جنسيته فكانت غير واضحة؛ فمرّة يقول إنه مصري، ومرة أخرى يقول إنه من أصل يوناني، وذات يوم طلبت فتاة من مرافقاته أن تراقص سمير، وكانت غاية في الجمال، فقال لها سمير إنها تشبه "أنيتا إيكبرج"، فقالت له: أنت ذكي لقد عرفت بسرعة الشبه بيني وبينها، وأحبته الفتاة وصارحت "سليم" بذلك، فقال لسمير: لولا أنك صديقي لقتلتك فإن "بوسي" أثمن صيد وقع في شباكي!

ولفت نظر سمير الإسكندراني في سليم أنه يحمل جواز سفر أمريكيًا، ولم يكن هذا بالشيء السهل وقتها.

وذات مرة لعب الخمر بعقل سليم ليقول لسمير: أنت لست كالمصريين يا سمير، فالمصريون "أقفال"، وبدأ العداء واضحًا في لغة سليم.. وأضاف: قل لي ما هي أحلامك؟

فقال سمير: أريد أن أدرس الديكور السينمائي في روما.

فدقّ سليم المائدة التي أمامه بيده وقال: إذًا فسأقدمك لمن يساعدك! وبعد عدة أيام دخل سليم ليقول له: هيا.. الرجل في انتظارك.

- قال سمير مندهشًا: أي رجل؟

- إنه صديق تطوّع ليجد لك عملاً.. هيا أسرع.. لا تضيع الفرصة الذهبية. فلمعت في رأس سمير حيلة تجعل هذا الشاب الغامض يكشف أكثر عن نفسه.. فقال له: يا سليم.. نحن أصحاب.. ألا تقول لي جنسيتك؟

- قال سليم: جنسيتي أمريكية وأستطيع أن أحصل لك على مثلها!

وحاول سمير الإسكندراني أن يكشف أكثر عن خبايا هذا الشاب الغامض، فبدأ يحكي له قصصًا مختلقة ليوهمه بأنه مطمئن إليه، فأطلعه سليم على مقال في مجلة أمريكية قائلاً له: إنه

هـو كاتبه، وإنـك – سـمير – تـستطيع أن تكتب عشرات المقالات عن مصر وتكسب ألوف الـدولارات باعتبـار أن ثمـن المقال الواحد هو (٧٠٠) دولار، وطبعًا المقال لا بد أن يتضمن معلـومات، والمعلـومات تحـتاج إلى تحرٍّ واسـتطلاع، وفي روما نزل الاثنان في فندق متواضع للغايـة اسـمه "بنـسيون القمر"، وفي غرفة قبيحة تركه لبعض الوقت. كانت كافية لأن يصلي سمير الإسكندراني خلالها ركعتين لله الخالق الواحد الأحد ويدعو ربه:

– يـا رب إنهـم يـريدون شرًّا بـبلدي ولـست أدري حدود هذا الشر، ولا أتبين إلى تلك اللحظة معالمه أو مداه.. ولكني أدعوك يا خالقي.. يا رب انصرني".

وفي الصباح نظر للمرآة.. وكان على وجهه شحوب، وحول الجفون هالة تشهد بالأرق، وتـناول طعـام الإفطـار في تـرقب وقلـق منتظـرًا مـا سيسفر عنه قدوم "سليم"، وجاء سليم ليأخذه في جولة لرؤية معالم روما، وفي التاكسي الذي أقلهما فاجأه سليم بهذا السؤال المباشر:

– ما رأيك في جمال عبد الناصر؟

وراوغ سـمير في الإجابـة، ليمـرّ هـذا اليوم دون جديد، وفي اليوم التالي جاء سليم وهو يـصطحب معـه فتاتـين مـن أجمـل بـنات العـالم، تشبهان مارلين مونرو، وجينا لولو بريجيدا، ويتحدثان بإثارة وإغراء!!

ولكـن مـرة أخـرى لاحـظ سـمير أن محور الحديث عن مصر وسوريا! فما علاقة فتاتين لعوبتـين بالـسياسة، وبالـسياسة العـربية عـلى وجـه الخـصوص؟ (وقـد كان وقتها هو وقت الوحدة بين مصر وسوريا) ولم يكن سمير يعرف أين يسكن سليم في روما، وقد كان هذا لغزًا آخـر، لدرجـة أنـه سـأله ذات مـرة: يـا أخي.. أليس مِن حقي أن أعرف عنوان الرجل الذي ارتبطت به حياتي!

والمدهش أن هذه العبارة أعجبت سليم جدًّا، ولكنه قال في مراوغة:

– ابقَ أنت في البنسيون، وأنا سأمرّ عليك كل صباح لنقضي طوال اليوم معًا!

وأضـاف: يـا صـديقي.. مـاذا تريد أكثر من هذا؟.. أنت في روما وسط أجمل الجميلات والوقت اللطيف.. أليس هذا يكفي؟!

ولكـن سـمير كـان تـوّاقًا لوقتٍ أمتع من هذا، الوقت الذي يكشف فيه الستار عن نهاية هـذه القـصة المثـيرة التـي يعـيش فصولها، ولا يدري هل ينجح في أن يقدم شيئًا لبلده وهو في

هذه السن المبكرة من حياته، لينضم إلى قائمة المجاهدين الوطنيين الذين يسعون لتنقية بلدهم من هؤلاء العابثين المخربين، أم أنهم سيكتشفون وطنيته مبكرًا ومن ثم يسعون للتخلص منه.. إنها مغامرة لم يكن أحد يعلم نهايتها حتى تلك اللحظة.. ولكنه كان حذرًا إلى أقصى درجات الحذر، فقد كان يعود إلى غرفته في ذلك البنسيون المتواضع ليستعيد كل كلمة بل كل حرف نطق به سليم؛ ليحلل ماذا يقصد؟ وهل يشك فيه؟ وزاد الأمر إثارة أن سمير كان يشعر بأن هناك مَن يراقبه داخل الفندق وخارجه، لدرجة أن سليم كان يقتحم عليه الغرفة دون أن يطرق الباب وفي أوقات غير متوقعة، وعندما نجح سمير الإسكندراني في الاختبارات المتوالية جاءه صوت سليم عبر أسلاك التليفون: سمير.. اسمعني.. ارتدِ أحسن ما لديكَ وقابلني بعد عشر دقائق في محطة السكك الحديدية بروما.. وأضاف: الموعد مهم جدًّا! ثم بمزيد من الإثارة: اذهب إلى الميدان الأسباني وأمسك نسخة من مجلة "التايم".. ادخل القهوة اليونانية.. لوِّح بالمجلة في يدك.. عند ذلك سيتلقفك رجلنا الكبير!!!

وبدأت رحلة الغموض والمجهول!!

وتفاصيل كثيرة يتكتمها حتى الآن سمير الإسكندراني رغم مرور هذه الأعوام الطويلة حتى تحقق المفاجأة عند تحويلها إلى فيلم تليفزيوني ينتظر البدء في تنفيذه منذ عام ١٩٨٤!!

المهم أن العملية دارت في إطار من الإثارة والغموض وعالم الجاسوسية المشحون بالقلق والتوتر وألعاب الدهاء المتبادلة، لنعرف أن العملية كان من بين أهدافها دسّ السم في طعام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، واغتيال المشير عبد الحكيم عامر، وعن طريق مسايرة سمير الإسكندراني لهذه الشبكة تم الكشف عن جاسوس تم تجنيده في القاهرة هو "إبراهيم رشيد" الذي كان مهمته هي رصد تحركات المشير عامر أولاً بأول وإرسالها برسائل الحبر السري إلى الموساد، وكانت تصل مباشرة إلى الكولونيل "هار كافي" مدير المخابرات الإسرائيلية وقتها، كما كشفت التحقيقات بعد أن أوقع سمير بأفراد الشبكة واحدًا بعد الآخر عن تجنيد عامل يوناني يعمل في محلات جروبي بالقاهرة اسمه "جورج إيستاماتيو" لتنفيذ عملية دس السم البطيء في طعام الرئيس عبد الناصر ليقتله خلال ستة أشهر، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك مساعٍ خسيسة للقيام بعمليات تخريب داخل قاعدة الغواصات المصرية ومحطات الرادار عن طريق جاسوس قُبِض عليه بعد كشف الشبكة، واسمه "رشاد رزق"، كما اكتشفت المخابرات العامة أن هذه الشبكة كانت تسعى لاغتيال طيارين مصريين عن طريق جاسوس اسمه "محمد سامي نافع".

كما كشفت المعلومات عن وجود خطة لنشر الشائعات التي تحبط همم المصريين وتزعزع ثقتهم بقيادتهم، وكان يشرف على تنفيذ هذه الخطط المسمومة في مصر مدير المخابرات الإسرائيلية "هار كافي" بنفسه بالإضافة إلى مكاتب الموساد في روما وباريس وأثينا وأمستردام وموينخ وزيورخ، وإنهم أنفقوا على ذلك ما يعادل مليون جنيه من ملايين ذلك الزمان.

وبعد أن نجح سمير الإسكندراني ورفيقه مهندس البواخر المصري عز الدين نعيمو في كشف هذه المؤامرة الخسيسة بخطة من أنجح ما يكون من جانب المخابرات العامة في مصر، استقال مدير المخابرات الإسرائيلية بعد أن وجد البطولة المصرية، والفضيحة الإسرائيلية منشورة في صحف أبريل من عام ١٩٦٠ في الصحف المصرية متصدرة الصفحات الأولى والأنباء الرئيسية..

ويبدو أن إسرائيل لم تنسَ بطولة هذا المطرب النجم المصري سمير الإسكندراني، ويا للغرابة أن تعود بعد أكثر من ٢٦ عامًا وفي صيف ١٩٩٦ لتنشر الصحف الإسرائيلية خبرًا تتناقله – مع الأسف – واحدة من الصحف المصرية، وفي الخبر تقول السطور إن سمير الإسكندراني قد سافر وغنى أمام حائط المبكى (!) بل إنه مؤسس لجمعية صداقة مصرية إسرائيلية، وبالطبع فإن سمير نفى بشدة هذه الأخبار الكاذبة قائلاً بالحرف: "أنا بطل قومي، وهناك مؤامرة لإجهاض بطولتي يشارك فيها الموساد الإسرائيلي"... (جريدة الأحرار ٩/ ٩/ ١٩٩٦).

ويا عم سمير لك أن تهنأ ببطولتك، فأنت نجم على مسرح الغناء، ونجم على مسرح العمل الوطني.

***

13

مريم فخر الدين

هل هزمت صلاح نصر؟!

(فأمسكت بالتليفون وطلبت طليقها محمود ذو الفقار لتستنجد به، وبشهامة ورجولة نقل محمود الأمر إلى شقيقه المخرج والضابط السابق عز الدين ذو الفقار، الذي استطاع أن يضع الأمر أمام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر شخصيًا، ليختفي صلاح نصر من طريق مريم فخر الدين.. ولكن كان الاختفاء مجرد هدنة وانتظار لأول فرصة تلوح في الأفق من جديد)

لعـل أهـم مـا في قـصة الفـنانة مـريم فخـر الدين مع صلاح نصر مؤسس ومدير جهاز المخابـرات في فـترة شـهدت كثـيرًا مـن الـتجاوزات، كـما شهدت - والحق يقال - كثيرًا من الإنجـازات والانتـصارات في مـباريات سـاخنة مـع جهـاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد)؛ حـيث تـم التـصدي لكثـير مـن الـضربات التـي كانت إسرائيل تسعى لتوجيهها إلى الشعب المصري، وكلها - مع الأسف - ضربات تحت الحزام.

لعـل أهـم ما في هذه القصة أنها تأتينا من مصدرها الأصلي، في شبه ذكريات تفصيلية من الفـنانة مـريم فخـر الـدين التـي كانـت طرفًا في مغامرة عجيبة من نوعها، لو صحّت روايتها لكانـت بـذلك أكـبر شـاهد على نوعية التفكير التي كانت تسيطر على رجل المخابرات الأول صلاح نـصر، عـلى الأقـل فـيما يـتعلق بالعلاقـة مـع بعـض الفـنانات المشهورات. والقارئ سـيندهش عظـيم الانـدهاش لهـذا الأسـلوب الـذي تمـت به عملية المطاردة، وكذلك الفترة الـزمنية التـي استغرقتها، وكأن مصر في ذلك الوقت لم يكن بها مِن القضايا ولا الأحداث ما يـستحق أن يـشغل فكر هذا الرجل المهم، أو يستحوذ على جهده، لدرجة أن مريم فخر الدين تذكـر ضـمن ما تذكر أن صلاح نصر دعا نفسه - أي فرض نفسه - على كأس شراب في بيتها وبحـضور زوجهـا الـثاني في أحـد الأيـام، ثم ما لبث أن كانت الدعوة - على الأصح فرض الدعوة - تتكرر يومًا بعد يوم، ثم أصبحت بعد فترة قليلة كل ليلة!

تـصوروا.. الرجل الأول في مخابرات مصر يسهر ليشرب، أو يشرب ليسهر في بيت فنانة كل ليلة!

هـذه هـي إحـدى الملاحظـات في هذه القصة، أما الملاحظة الثانية، ولعلها تفرض نفسها عـلى القـارئ، فهي أن صلاح نصر في مطاردته لهذه الفنانة التي استمرت لسنوات استغل فيها كل إمكانات المخابرات من مندوبين وتنصت وتسجيلات وخلافه، لم نجده يطلب من الفنانة مـريم فخـر الـدين القـيام بعمل بطولي واحد يحقق أو يساعد على تحقيق السيادة الأمنية لمصر ولشعبها!

بـل إنـنا نلاحـظ أن كـل مـا يقوله صلاح نصر للفنانة الجميلة التي كانت تلهب مشاعر الـشباب والمـراهقين في تلك الفترة، بضع كلمات حب وغرام - حسب روايتها هي - أو مجرد ملامسة يدها خلسة أثناء انشغال زوجها في المطبخ(!).

هـل كانـت هـذه الأحداث وما صاحبها من مغامرات مجرد مقدمة طويلة - وسخيفة - لتجنـيد هـذه الفنانة العنيدة؟ أم هي مجرد قصة إعجاب عادية بين رجل وامرأة، وتصادف أن يكـون الـرجل هـو صـلاح نـصر الـرجل الأخطر في مصر في ذلك الوقت، والمرأة هي الفنانة مـريم فخـر الـدين الـنجمة ذائعـة الـصيت الشقراء التي غنى لها العندليب الرائع عبد الحليم حـافظ لعينـيها: "لـو شفتم عينيه.. حلوين قد إيه" ولشعرها: "والشعر الحرير.. على الخدود يهفهـف ويـرجع يطـير"؟ وبالتالي صادفت القصة هوى كل مَن سمع بها، وربما زاد عليها من خياله، ليشارك الخيال الجمعي في صنع الأسطورة!

ولكـن في هذه المرة قطعت مريم فخر الدين الطريق أمام السائرين بها إلى عالم الأساطير، وقـررت أن تحكـي، ونحـن مـضطرون لأن نأخـذ الكثير من روايتها؛ لأننا لا نملك مصادر أخرى، وحتى إن وجدت المصادر الأخرى - وهي موجودة بالفعل بشكل أو بآخر - فإنها - لأسـباب كثـيرة - لا ترقـى لأن نـصدقها أو أن نـرجح كفـتها.. والآن إلى القـصة الكاملـة للمطـاردة المثـيرة بـين صـلاح نصر ومريم فخر الدين.. فقد بدأت الحكاية بعد طلاق الفنانة مـريم فخـر الـدين من زوجها الأول المخرج محمود ذو الفقار - والد ابنتهما إيمان - بأقل من أسـبوع واحـد، وكانـت الخلافـات مـشتعلة بـين الـنجمة وزوجها السابق بسبب ما قيل عن اسـتيلائه عـلى كـل الأمـوال الـتي كانـت تحصل عليها كأجور عن بطولة أفلامها، وقد قالت الفـنانة مـريم فخـر الدين - أكثر من مرة، وفي حوارات صحفية متفرقة - إن زوجها المخرج الـراحل محمود ذو الفقار كان يتعاقد نيابة عنها على أفلامها ويحصل هو على أجرها نيابة عنها ثـم يعطيها بضعة قروش كل يوم من أيام التصوير كمصروف لشراء ساندويتش وزجاجة من المياه الغازية!

وقـد روت أنهـا انتهـزت فرصـة زيـادة أجـرها إلى الضعف تقريبًا مرة واحدة بعد أن لمع اسـمها وأصـبحت مـن نجمات الشباك، فكانت تعطي لزوجها ذو الفقار الأجر القديم الذي يعـرفه، في حـين تحتفظ بباقـي المـبلغ في مكان سري في الشقة حتى سافر الزوج لبضعة أيام، فأخرجت المبالغ التي ادخرتها فكانت مبلغًا كبيرًا اشترت منه شقة في نفس العمارة التي تسكن

فـيها مع زوجها وقامت بتأثيثها، ثم انتقلت للإقامة بها هي وابنتها، وعندما عاد الزوج وسأل عـن زوجـته أخبره البواب وحدثت مواجهة عنيفة أصرت على إثرها الفنانة مريم فخر الدين على الطلاق، وقد كان..

وعـندما وقـع الطـلاق كانـت مريم فخر الدين تعيش من راتب شهري كانت تعطيه لها شركـة الـشرق للإنـتاج السينمائي لصاحبها "جان خوري" نظير احتكار جهودها فيما لا يزيد عن أربعة أفلام في العام، وعندما ذهبت تقبض راتبها، فوجئت بالكاتبة "س. ق" وهي تلطم وتولـول قائلة لمريم: كارثة.. لقد رشحتك لبطولة رابعة العدوية بينما باع المخرج عباس كامل القصة لممثلة لبنانية..

فقالت مريم فخر الدين بلا مبالاة: معلهش.. خيرها في غيرها.

ولكن الكاتبة كانت تريد شيئًا محددًا حيث قالت لها: أنتِ وحدك تستطيعين أن تخلصيني مـن هـذه الـورطة.. ممكـن تكلمـي أي مـسئول كبير يحلّ المشكلة! ولكن مريم أكدت لها أنها ليـست على صلة مع أحد من الكبراء. فعادت الكاتبة لتقول وتلحّ في أنها ستمرّ عليها في اليوم الـتالي ليذهـبا معًـا إلى أحـد الوزراء، وأمام إلحاحها وافقت مريم، وفي اليوم التالي أشارت لها السيدة على سيارة مرسيدس قائلة: هذه السيارة فيها الوزير!

ولكـن مـريم أصرت عـلى أن يكـون اللقاء في سيارتها هي، وبالفعل جاء الرجل ليركب سيارة مريم، التي بادرته بقولها: حضرتك وزير الثقافة.. إحنا عندنا طلب من سيادتك..

وضـحك الـرجل لأنـه ببـساطة لـيس وزيـر الـثقافة التي – يا للدهشة – لا تعرفه فنانة بحجـم مـريم فخر الدين، فلم يكن الرجل سوى صلاح نصر! واعتقدت في البداية أنه يمزح إلى أن أثبت لها عن طريق بطاقته الشخصية، وكاد يغمى عليها من هول المفاجأة التي أزعجتها وأخافـتها! واخـتلقت مـريم الحجـج لتـتخلص مـن هذه المقابلة الثقيلة، فقد ادعت أنها على مـوعد للتـصوير أمام فريد الأطرش، ولكن صلاح نصر حسب هذه الرواية لم يتركها إلا بعد أن صرّح لهـا بإعجابـه – إلى درجـة الجـنون – وأضـاف أنـه لم يـستطع الاقـتراب منها خلال الـسنوات الماضـية لأنهـا كانـت زوجـة، وأن زوجهـا كان صديقًا له – لصلاح نصر – وأمام سؤال شديد الأهمية وإجابة لا تقل أهمية عن السؤال، سألته: ولماذا دبرت اللقاء بهذا الشكل؟

قال رجل المخابرات الأول: لأنى أحب المغامرات!!

وتـركها وانـصرف، بيـنما ظلت هي مشغولة بالتفكير في كيفية التخلص من هذا الرجل!
ومما يوضـح خطـورة الموقـف أنهـا عـندما عادت إلى منزلها وروت ما حدث لشقيقها الفنان يوسـف فخـر الـدين قـال جملـة واحـدة هي: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وبعدها مباشرة جمع ملابسه وغادر المنزل فورًا!

إلى هـذا الحـد كـان هـذا الـرجل مخيفًا.. إلى هذه الدرجة لم يكن أحد يستطيع أن يقول له (لا)؟!

فلنقرأ ماذا ستسفر عنه تلك المطاردة المثيرة..

عـندما حكـت مريم لوالدتها "الخواجاية" ما حدث، قالت لها الأم: ما تخافيش يا مريم، إن أكـبر رجل لا يقوى على أضعف ست!! ولعل هذا ما بعث الطمأنينة -نسبيًّا- لدى مريم فخـر الـدين التـي قالت لنفسها إن هذا الرجل رغم منصبه الحساس لا يستطيع أن يأخذ مني إلا ما أريد أنا أن أمنحه، وهو لا يستطيع أن يلمسني إلا بالحلال.. بالزواج الشرعي.

والحقـيقة أن ثمة سؤالاً يطرح نفسه وهو: لماذا ذهب تفكير السيدة مريم فخر الدين تجاه هذه النقطة تحديدًا.. أي تجاه "الرغبة" ولماذا حصرت مطالب صلاح نصر منها في شيء وحيد هو: المتعة الجسدية؟! هل هي "السمعة" التي كانت سائدة في ذلك الوقت عن الرجل ظلمًا أو عدلاً؟!

لـماذا لم يـدُرْ في خلَـدها مـثلاً أن صـلاح نـصر يريدها لمهمة مخابراتية يرى أنها جديرة بها وقادرة عليها..

مـن الواضـح أن هـذه الـنقطة تحديـدًا لم تـرِد عـلى بالهـا على الإطلاق رغم أنها الأقرب للمنطق!!

ولكـنها في هـذه اللحظـة لم تـتمكن مـن أن تطرد الخوف الذي امتلأ به قلبها، فأمسكت بالتلـيفون وطلـبت طلـيقها محمـود ذو الفقـار لتستنجد به، وبشهامة ورجولة نقل محمود ذو الفقـار الـشكوى إلى شـقيقه المخـرج والـضابط السابق عز الدين ذو الفقار الذي استطاع أن يـضع الأمـر أمـام الـزعيم الـراحل جمـال عـبد الناصر شخصيًّا في صباح اليوم التالي، وفعلاً جـاءت النتيجة إيجابية للغاية، ليختفي صلاح نصر من طريق مريم فخر الدين.. ولكن.. كان الاخـتفاء مجرد هدنة وانتظار لأول فرصة تلوح في الأفق من جديد! ورغم هذا فإن مريم فخر

الدين لم تطمئن تمامًا، بل فرضت على نفسها عزلة وسجنًا اختياريًا داخل شقتها مع وحيدتها، وفي مونولوج داخلي تمنّت مريم لو كانت قد داعبت هذا الرجل واستجابت له حتى تتخلص من الكابوس الذي يجثم على صدرها (حسب ما جاء في حوارها مع مجلة الموعد اللبنانية وجريدة الأحرار ومجلة كل شيء)، بل إنها أردفت كلمات غاية في الأهمية تكشف عن الصراع الداخلي الذي يسيطر على تفكير بعض مَن مررن بهذه التجربة الصعبة، فقد قالت بالحرف:

"هذا الرجل يمكن أن يمنحني كل شيء .. المال والجاه، والعمل السينمائي يقدمه لي على طبق من ذهب.. وصداقته تفتح أمامي الأبواب في كل مكان"! وهذا هو الوتر الذي يضرب عليه رجل المخابرات، والذي يكون هو "النغمة" المحببة التي تُطرب آذان مَن في نفسها ضعف من الفنانات! وتستمر مريم فخر الدين في مونولوجها الداخلي الذي يكشف الكثير عندما تقول: "هناك العديد من زميلاتك – زميلات مريم – فعلنَ أكثر من ذلك، واحدة منهن على علاقة بضابط في مكتب المشير وفُتحت لها الأبواب، وأخرى لجأت إلى سلاح الإغراء فأصبح أحد الضباط تحت أمرها وبدأت ترشَّح لكل الأعمال الفنية، وأنت الآن بدون عمل، ووجود ظهر قوي لك قد يحميك ويجعلك نجمة عالمية أيضًا.." (جريدة الأحرار ١٢/ ١٢/ ١٩٨٨) هل معنى هذا أن مريم فخر الدين كانت على وشك أن تضعف؟ هل كانت مؤهلة لذلك، أم أنها لم تقوَ على الضغوط النفسية الرهيبة التي تتعرض لها؟ حسب روايتها فإنها طردت هذه الأفكار بسرعة وقررت المواجهة بشجاعة. فهل تستطيع مقاومة رئيس المخابرات العامة في وقت لم يكن أحد فيه يجرؤ على مجرد ذكر اسمه؟

ولكن الذي حدث أن مريم قد اندفعت في هذا الوقت في طريق آخر، عندما تعرفت على طبيب الأنف والأذن والحنجرة الدكتور عبد الحميد الطويل نجل واحد مِن باشوات مصر قبل الثورة وهو عبد الحميد الطويل، ونشأت بينهما قصة حب سريعة، سرعان ما طلبها الدكتور للزواج فوافقت، ووجدت فيه حماية لها ولابنتها، ووافقت على طلبه باعتزال التمثيل لتكون سيدة منزل ومربية لابنتها، بل وسافرت معه إلى لندن وألمانيا ليحصل هو مِن هناك على الدكتوراه، ولتحصل هي على مزيد من الأمن والاستقرار، ولتنجب منه ابنها محمد الطويل. فهل كانت هذه الأعوام والأحداث كافية ليسدل الستار عن قصتها مع الرجل الخطير صلاح نصر؟

ومن باب الاحتياط قررت مريم فخر الدين أن تأخذ حذرها عندما حان موعد العودة إلى القاهرة، فقد قررت ألا تخرج من منزلها إلا للضرورة القصوى، ورغم ذلك جاءها ما

توقعته تمامًا عبر أسلاك التليفون، فقد جاءها صوت أجشّ يقول بلهجة فيها من التحدي والصلف: ألو.. أنا صديقك القديم صلاح نصر..

قالت مريم بصوت متهدج، خائف: أهلاً يا صلاح بيه..

فدخل في الموضوع مباشرة: لماذا شكوتيني للقيادة السياسية (يقصد عبد الناصر) وحاولت الدفاع عن نفسها، ولكنه قصّر المسافة معبرًا عن حبه لها وولعه بها، إنه لن يتعرض لها الآن ما دامت زوجة..

كلام جميل.. ولكن الأيام التالية كانت تحمل مزيدًا من المفاجآت..

ولأن مريم قررت أن تأخذ حذرها، فقد رأت أن تخبر زوجها بتفاصيل حكايتها مع صلاح نصر تحسبًا لأية مفاجآت، ولكن يبدو أن صلاح نصر كان يتحين الفرصة - بل يسعى لخلقها خلقًا - من أجل اللقاء مع مريم، وبالفعل في إحدى زيارتها وكانت بصحبة زوجها تلبية لإحدى الدعوات، فوجئت بصلاح نصر بين المدعوين، والحقيقة أنها لم تندهش كثيرًا، ولم تأخذها المفاجأة، فقد عرفت عن الرجل ميله إلى أساليب المخابرات من صناعة الفرصة بشكل يدهشك، ونجح صلاح نصر في أن يصطنع مناسبة للحديث والتعارف مع زوجها الطبيب، بل ووعده بتسهيل إجراءات استيراد بعض الأجهزة الطبية التي كان يجد صعوبة في استيرادها في ذلك الوقت، ومن هنا نشأت علاقة منفعة ومصالح متبادلة، الدكتور يريد بعض الامتيازات المتعلقة بعمله، وصلاح نصر يريد فرصة للتقرب من صيده تحقيقًا لرغبة لم يفصح عن تفاصيلها حتى الآن. وزاد من خطورة الأمر ما تقرره مريم فخر الدين في روايتها، أن رجل المخابرات الأخطر قد اشتم رائحة خوف، بل وذعر من جانب زوجها سليل الباشوات ووزراء العهد البائد، في وقت كانت تشتد الحملة عليهم باعتبارهم رمزًا للرجعية، حيث كان الخوف من تآمرهم على الثورة والعهد الجديد، ومن ثم كان يسهل جدًّا على صلاح نصر أن يلفق تهمة العداء للنظام والتآمر عليه، وبالتالي يحجز له مكانًا.. وراء الشمس!! وأمام هذا الخوف كان غريبًا - ولكنه يتّسق مع منطق الرعب والذعر - أن يوافق الزوج - زوج مريم فخر الدين - على دعوة صلاح نصر لنفسه على كأس شراب(!) في منزل الزوجية، بل وأن يطالب من زوجته الفنانة أن تهتم بتحضير المزات!!

وللتعبير عن كرمه أرسل صلاح نصر من ناحيته - قبل وصوله - صندوقين من أفخر وأفخم أنواع الشراب، وهي أنواع لم تكن متوافرة بسهولة وقتها في السوق المصري لندرة استيرادها، ولكنه النفوذ!

والمثير أن الفنانة مريم فخر الدين تذكر أن صلاح نصر كان خلال هذه "القعدة" ينتهز فرصة دخول زوجها الدكتور الطويل إلى المطبخ، حتى تمتد يده لتلامس يدها، وكانت تتخلص منه بسرعة بأن ترفع يدها تجاه وجهها! وبعد انتهاء المقابلة روت مريم لزوجها ما وقع من صلاح نصر، فثار الزوج وصرخ، ولكنه كان عاجزًا عن مواجهة الأمر.

وبعد ذلك اكتشفت مريم أنها وزوجها مراقبَيْن، وكذلك تليفونها وتليفون عيادة الدكتور الطويل، ثم جاءها صوت صلاح نصر عبر الهاتف قائلاً بدون مقدمات: أنا عايز أقابلك على انفراد!

فقالت مستجمعة كل شجاعتها: شوف يا صلاح بيه.. لا أنت ولا رئيس أمريكا ولا أي مخلوق يقدر يجبرني على حاجة أنا مش عايزة أعملها، والمقابلة التي تحلم بها لن تتم أبدًا.

ولكن ذلك لم يكن كافيًا لابتعاد رجل المخابرات الأخطر عن طريق هذه الفنانة، بل أصبح "يعزم" نفسه (كل يوم) على شراب في بيتها وبحضور زوجها!! حتى إنه سعى لتوطيد العلاقة أكثر مع مريم وزوجها، لتأخذ شكل العلاقات الأسرية، فقد كان يدعوها أحيانًا وزوجها لزيارة أسرته، وقد لاحظت أنه يعيش في مستوى اجتماعي عادي ليس فيه بذخ، لدرجة أنهم كانوا يتناولون العشاء أرضًا وعلى قطعة من "المشمع"!

وفي الحقيقة أنا شخصيًا لا أفهم كيف تحمل العلاقة بين صلاح نصر والفنانة مريم فخر الدين وزوجها شكل المطاردة، ثم تكون هناك هذه العلاقة الحميمة بينهم لدرجة تلبية كل طرف لدعوات الطرف الآخر، لتصبح دعوات "يومية" حسب رواية السيدة مريم فخر الدين، ولدرجة قبولها الدعوة لزيارة منزل وأسرة صلاح نصر بهذا القدر من الأمان.. هذه ملاحظة رأيت أن أرصدها وأسجلها ليفكر فيها القارئ معي.

ولكن يبدو أن هذه كانت مجرد هدنة بين الطرفين، فقد تبعها محاولة "مخابراتية" عندما أرسل لها صلاح نصر مجموعة من شرائط الكاسيت مسجلاً عليها مكالمات غرامية بين زوجها الدكتور الطويل وبين واحدة يبدو من صوتها أنها امرأة لعوب!

وبخبرة فنانة تعمل بالسينما، اكتشفت وجود عمليات مونتاج وتلاعب في هذه التسجيلات، لذلك فإنها لم تصدقها.

ويبدو أن صبر صلاح نصر قد نفد عند هذا الحدّ فانفجر قائلاً عبر مكالمة هاتفية معها:

- جوزك ده أنا ممكن أفعصه برجلي!

وردّتْ بقـوة حتـى لا يـشتمّ رائحـة الخوف تسيطر عليها، فقالت له: لو فعلت ذلك فإن هذا هو قسمتي وقسمته!

ولاحـظ زوج مـريم الدكـتور الطـويل أن هـناك عـددًا مـن النساء الجميلات واللعوب أصـبحن يـترددن عـلى عـيادته بكثـرة، وأنهـن لا يـتورعن عـن مغازلته! وطبعًا اللعبة كانت مكـشوفة، فالمقـصود هـو إثـبات خـيانة الزوج حتى تكون مبررًا لهجر الزوجة له، ولكن مع فـشل هـذه المحـاولات كان لا بد من أسلوب التهديد المباشر فها هو يقول: أنا وراك والزمن طـويل! ولكـن المثـير أنـه رغم سخونة المطاردة فإن صلاح نصر كان لا يزال يدعو نفسه على الـشراب في منـزل مـريم وزوجهـا، وكـأن شيئًا غير عادي لا يحدث! إلى أن قرر صلاح نصر القيام بعملـية "بـسيطة" ولكـنها محكمة لجذب مريم فخر الدين إلى شباكه، وليُفهمها رسالة مفادهـا أنـه إذا كـان هـو صاحب العمليات الكبيرة في دنيا المخابرات، فإنه لن تستعصي عليه هذه الفنانة مهما كانت صلابتها ومهما كان عنادها..

بـدأت "العملـيات" عـندما تـم اسـتدعاء الزوج الدكتور الطويل من إجازة صيف كان يقـضيها الـزوجان في الإسـكندرية، في مهمة عمل عاجلة في القاهرة، ليترك مريم فخر الدين وحدها في الفندق بالإسكندرية، وفي صباح اليوم التالي كانت مريم تتريض على شاطئ البحر عـندما قابلـتها صـديقة مـن أيام الدراسة - طبعًا سنفهم بعد قليل أن المقابلة لم تكن صدفة - وأصرّت عـلى دعـوتها في المـساء لتناول العشاء والدردشة في منزل الصديقة بسموحة، وأمام إصرار الـصديقة وافقـت مـريم بعـد أن أخـبرت زوجهـا هاتفيًا، ورحّب بذلك، وفي الموعد المحـدد كـان هـناك سـائق أمـام الفـندق يقـول إنه جاء من عند مدام "زيزي" - صديقتها - لتوصيلها إلى هـناك، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى وجـدت نفـسها أمام فيللا في منطقة هادئة، لـتدخلها بعـد ذلـك لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام صلاح نصر الذي ضحك ضحكة المنتصر قائلاً:

- هـل علمـتِ الآن أنني أستطيع أن أحـصل عليك في الوقت الذي أريده! ولاحظت مريم فخر الدين أن صلاح نصر يحيط به خمسة رجال أشداء جدًا ذوي تكوين جسماني مخيف.

وكما تقـول في روايـتها: حاولـت أن تُعمـل ذكاءهـا، وخـشيت أول ما خشيت أن يأمر صلاح نصر رجاله باغتصابها أمامه، كنوع من الانتقام منها، وكانت في ذلك الوقت حاملاً في

شهرها الثالث، ولو حدث ذلك فإن مصيرها سيكون هو الموت المؤكد - حسب روايتها - والحقيقة أننا نعتقد أن الموت لا يأتي في هذا التوقيت بسبب الحمل والتعذيب البدني، بل إنه يأتي بسبب الخوف على الشرف والحياء الشديد من فقدانه بهذه الطريقة المهينة.

وهنا تقول مريم فخر الدين أنها حاولت بذكاء الأنثى أن تتخلص من هؤلاء الرجال الخمسة أولاً، فتكلمت بطريقة ناعمة مع صلاح نصر، وطلبت منه انصراف هؤلاء الرجال، ومنَّتْه بسهرة رائعة، وبالفعل أمر صلاح نصر رجاله بالانصراف، وهنا واصلت مريم فخر الدين لعبتها وطلبت منه أن تتناول شرابًا بعد أن لاحظت عدم وجوده على مائدته، وفي أثناء ذهابه إلى المطبخ لإحضاره، قفزت من نافذة الفيللا - الدور الأرضي - وتعمّدتْ أن تَطلب النجدة بصوت عالٍ لكي تسبب الحرج لصلاح نصر ورجاله، حتى أمر صلاح نصر بتوصيلها إلى الفندق الذي تقيم فيه بعد أن أصيبت بكسر في قدمها وإجهاض فقدت بسببه جنينها.

ورأت مريم فخر الدين أن تبادر هي بتخويف صلاح نصر، ومع أول مكالمة هاتفية منه أخبرته أنها مازالت في حوزتها شرائط الكاسيت التي قامت أجهزة صلاح نصر بتسجيلها لزوجها في عيادته وفي بيته، وفي هذا دليل دامغ على انحراف جهاز المخابرات عن وظيفته ومهامه الأساسية، وأنها ستعمل على تقديم هذه الشرائط إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًّا. ويبدو أن اللعبة حققت نتائجها، فأرسل صلاح نصر رجاله يفتشون داخل شقتها فلم يعثروا على شيء، فقالت له في مكالمة تالية: إنها أرسلت هذه الشرائط إلى خارج مصر وإنهم سيقدمونها إلى الصحف هناك إذا ما حدث لها مكروه أو أخبرتهم هي بذلك.

وجاءها الصوت المهزوم: ماذا تريدين؟

- قالت: أريد السفر فورًا إلى بيروت ومعي ابني والمربية الخاصة بي، وأريد أذونات سفر لنا جميعًا، وأن أصطحب معي مصوغاتي.

- قال دون تفكير: ما فيش مانع.. بكرة عندك كل شيء. ونفّذ صلاح نصر ما وعد به، لتسافر مريم وابنها حمادة ومربيته إلى بيروت لتعيش هناك ولا تعود إلى فنها، حتى استمعت إلى هذا الخبر الذي نزل عليها كالصاعقة من إذاعة القاهرة التي كانت حريصة على سماعها في بيروت، وكان الخبر عقب نكسة ١٩٦٧ يقول:

"تـم اعـتقال رئـيس المخابـرات المـصرية صـلاح نـصر وأحيل إلى محكمة الثورة بعد أن انحرف بجهاز المخابرات عن مهامه الأصلية".

وهنا فقط تأكدت مريم فخر الدين أن قصتها مع صلاح نصر قد انتهت للأبد.

***

14

السينما و.. الثورة
أفلام "مع" أفلام "ضد"

(وعـندما علـم جمال عبد الناصر بتفاصيل الفيلم، وأن كمال يس سيقوم بنفس الدور الذي لعبه ناصر، حرص على الالـتقاء بـه عدة مرات، وناقش معه كثير من التفاصيل كي يخرج الدور والفيلم في شكل يوضح بعض ما كان يجري في كواليس الثورة المصرية)

نـصف قـرن مـن عمر الثورة المصرية. نصف قرن.. لو كانت السينما تصور خلالها ثلاثة مـشاهد فقـط كـل عـام لأصـبح عـندنا فـيلم عالمـي يـؤرخ لثورة يوليو ٥٢ التي كانت بداية لنـزاعات التحـرر في المـنطقة العـربية والقـارة الإفـريقية، بل إن كثيرًا من حركات التحرر في أماكن بعيدة من العالم قد استمدت عافيتها و"همتها" من الثورة المصرية!

صـحيح أننا وجدنا "أثرًا" لثورة يوليو في أفلام مصرية عديدة، وقد يكون هذا الأثر ممثلاً في "كـشط" صـورة الملك السابق فاروق كما في فيلم "غزل البنات"، أو يكون على هيئة وضع صورة في مكان بارز لرمز الثورة المصرية وثاني رؤسائها (جمال عبد الناصر).. وقد يكون جملة محـشورة حـشرًا في فيلم اجتماعي كأن تقول بطلة الفيلم وهي تشكو من المستبِدّ "إحنا دلوقتي في عهد جديد.. عهد الثورة" أو شيئًا من هذا القبيل..

ولكـن لـيس هـذا مـا يخلّـد الـثورة، ولـيس هو ما كانت تطمح إليه (السلطة) من الفن السابع..

ومـا بـين هـذا وذاك كانـت هناك (علاقة) قائمة، وخيوط ممدودة بين الشد والجذب بين الفـنان وسلطة الثورة المصرية.. ومن الطريف أن نجد فيلمًا اجتماعيًّا مثل فيلم "الفتوّة"، وهو أحـد روائـع المخـرج الراحل صلاح أبو سيف، يتناول من بين ما يتناول جانبًا من فساد عهد الملكـية، ولـيس هـذا بمـستغرَب؛ فالحـياة الاجتماعـية هـي جانب من نسيج السياسة، ومرآة تـنعكس علـيها فـساد أو نـزاهة الحكـيم، وفي الفـيلم شلة المنتفعين والمتاجرين بالألقاب، بل وبفاكهـة الخاصة الملكية (بطيخ مولانا)، وهو تيار وُجِدَ وانتعش في الفترة التالية للثورة، لعله مـن الـصدف أيـضًا أن الشركة المنتجة لهذا الفيلم كان اسمها "أفلام العهد الجديد" لصاحبها فريد شوقي، وبالطبع يمكن أن نستنتج أن العهد الجديد هنا هو عهد الثورة، حيث إن الشركة تكـونت عـام ١٩٥٣، بيـنما عُرِض الفتوة في ٢٩/ ٤/ ١٩٥٧. وجدير بالذكر أن الفيلم بطولة فريد شوقي، وتحية كاريوكا، وزكي رستم، وضيفي الشرف: هدى سلطان، ومحمود المليجي.

مصطفى كامل:

وكانت الثورة هي بارقة الأمل لفيلم "مصطفى كامل" الذي بدأ العمل فيه قبل الثورة، ولكن لأن العهد الملكي لم يكن يتحمس لتلك النوعية من الأفلام التي تثير الهمة الوطنية، أو تلك التي تتناول حياة رموز وطنية غير الملوك والحكام، فلم يسمح بعرض الفيلم إلا بعد أن جاءت الثورة، وتم السماح بعرض الفيلم في ١٤/ ١١/ ١٩٥٢؛ أي في نفس عام ولادة الثورة المصرية.

وهو بالمناسبة الفيلم الوحيد لبطلة أنور أحمد، وشاركته البطولة ماجدة، والفنانون: حسين رياض، محمود المليجي، أمينة رزق، عن قصة الأستاذ فتحي رضوان.

الله معنا:

ربما كان أول فيلم تناول الثورة كموضوع أساسي وبشكل مباشر هو فيلم "الله معنا" الذي كتب قصته إحسان عبد القدوس، والذي بدأ أحداثه من قصة الأسلحة الفائدة (التي تضاربت الأقوال حولها في الفترة الأخيرة)، والتي كشف قصتها صحفيًّا إحسان مِن خلال مجلة روز اليوسف، وأضاف لها تشكيل الضباط الأحرار، وعرض الفيلم في الشهور الأولى من عام ١٩٥٥، وقام ببطولته السيدة فاتن حمامة، وعماد حمدي، محمود المليجي، وشكري سرحان، والإخراج لأحمد بدر خان.

ردّ قلبي:

ويعدّ فيلم "رد قلبي" من أكثر الأفلام السينمائية عذوبة التي تناولت الثورة، ومن أجملها، ففيه "رقة" الرومانسية، و"عمق" العلاقات الاجتماعية، ومخاطر العمل الوطني في أوقات الشدة، وسلاسة الأداء التمثيلي لنجومه، وهم باقة من ألمع نجوم السينما المصرية، بدءًا من العملاق حسين رياض، إلى النجوم: شكري سرحان، مريم فخر الدين، صلاح ذو الفقار، الفارس أحمد مظهر، وكمال ياسين، وللأخير قصة سنحكيها بعد سطور قليلة تتعلق بدوره في الفيلم.

والقصة والحوار كتبهما بعمق وعذوبة مدهشين الأديب يوسف السباعي، والقصة باختصار هي قصة رجل من الطبقة الدنيا استطاع أن يقتطع من قوت يومه ليحقق حلمه في ولديه، وهو ما نجح فيه، ونأتي للخط الرومانسي في الفيلم، وهو المتمثل في شخصية "علي"

شكري سرحان الذي خفق قلبه – وهو ابن خادم القصر (الجنايني) – لابنة الباشا، "وما أدراك ما الباشا في سالف الدهر والزمان!"، وعندما يكتشف ابن الباشا العلاقة بين أخته وابن الجنايني يقوم بطرد الجنايني وليس ابنه فقط، ويهدد ويتوعد فتتظاهر الجميلة أنجي بقبول الأمر الواقع، ولكنها تظل على العهد، ويتدخل شقيق علي بإنهاء العلاقة بينهما عن طريق الخديعة رحمة بشقيقه من حب بلا أمل، ومع حريق القاهرة السابق للثورة، يكتشف "علي" الخديعة، ويعرف أن حبيبته على العهد باقية، وفي الوقت نفسه يعرف "علي" حبًّا أكبر من حبه لأنجي.. حب الوطن والمبادئ، من خلال كمال يس الذي يكشف له عن أنه أحد قيادات تشكيل الضباط الأحرار، وينضم إليهم "علي"، وتتفجر الثورة، ويكلّف بتنفيذ أحد أهداف الثورة، فيرأس لجنة مصادرة أملاك كبار الإقطاعيين، ويذهب إلى قصر أنجي التي تتوهم أنه جاء للتشفي فيها، ولكنها سرعان ما تكشف عن تعاطفها مع مبادئ الثورة، وتفوز بقلب حبيبها، ونفوز نحن المشاهدين بواحد مِن أرقّ الأفلام الوطنية.

وعندما علم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتفاصيل الفيلم، وأن كمال يس سيقوم بالدور نفسه الذي لعبه ناصر، حرص على الالتقاء به عدة مرات، وناقش معه كثيرًا من التفاصيل كي يخرج الدور والفيلم في شكل يوضح بعض ما كان يجري في كواليس الثورة المصرية.

وفي العام نفسه (١٩٥٧) يقال إن الرئيس جمال عبد الناصر قد استدعى **المخرج عز** الدين ذو الفقار والفنان فريد شوقي، وناقش معهما ضرورة إنتاج فيلم عن مدينة بورسعيد الباسلة وتصديّها للعدوان، وقد كان ذلك في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، وبالفعل تم إنتاج الفيلم، وعرض في شهر يوليو من العام ذاته، وقام ببطولته فريد شوقي، وليلى فوزي، وشكري سرحان، وزهرة العلا، وأمينة رزق، وحسين رياض، وأحمد مظهر، ورشدي أباظة، وكما هو واضح من فريق العمل أنه قد اجتمع لهذا الفيلم أكبر حشد من نجوم الصف الأول.

شيء من الخوف:

عُرض فيلم شيء من الخوف في يوم ٣/ ٢/ ١٩٦٩، وهو من إخراج حسين كمال، عن قصة الأديب ثروت أباظة، وحوار صبري عزت، والبطولة للنجوم: محمود مرسي، وشادية، ويحيى شاهين.

وعرض الفيلم قبل وفاة عبد الناصر بما يقترب من العشرين شهرًا، وبعد "شيء من الخوف" بنحو ثمانية شهور، وتحديدًا في ١٣/ ١٠/ ١٩٦٩، عرض فيلم "ميرامار" للمخرج كمال الشيخ، عن قصة نجيب محفوظ، وسيناريو وحوار ممدوح الليثي، وبطولة: يوسف شعبان، وشادية، ويوسف وهبي، وعماد حمدي، والوجه الجديد وقتها عبد الرحمن علي، ومن قبله عُرض فيلم "اللص والكلاب" - قبل ذلك بسبع سنوات - وجميعها أفلام تدخل في بند "السياسة"، وجميعها أيضًا أفلام تنتقد النظام ولا تهادنه، وبرغم كل ما قيل عن الطبيعة القاسية التي حكمت مرحلة ما بعد الثورة، إلا أن فيلمًا من هذه الأفلام لم يُصادَر، ولم يمنع عرضه، وقد يكون مفيدًا هنا أن نروي حكاية فيلم "شيء من الخوف" - وهي القصة التي قيل إنها تنتقد عبد الناصر شخصيًّا - لنوضح موقف السلطة (الرئيس) منها!

فالفيلم يتناول قصة عتريس.. الطفل الذي نشأ ليجد جده قائمًا على تربيته على القسوة، ويغرس فيه حب الانتقام، أو حتى الانتقام من الحب، أو إن شئت كراهية الحب (!) وبالفعل يستطيع الجد بهذه التربية أن يغيّر من معالم شخصية الحفيد الذي يكبر ليتولى تسيير أمور قريته، وينجح في السيطرة عليها وعلى مقدرات أهلها بالكرباج، وبالحديد والنار يخضع له الجميع.

وفي مقابل عتريس نجد "فؤادة" الزهرة المتفتحة التي لا تعرف سوى الحب، والتي يجمعها علاقة حب متبادلة مع عتريس منذ مرحلة البراءة، ورغم ذلك فهي تقف ضده وتتحداه بعد أن لمست قسوته في التعامل مع أهل قريتها، ولا يجد عتريس مفرًّا من الزواج منها رغمًا عن إرادتها وإرادة والدها الذي لا يجد مفرًّا هو الآخر من تزوير شهادته ليعلن رضوخ فؤادة للزواج من عتريس. وعندما يشيع النبأ تبدأ الهمسات ثم ما تلبث أن تصبح صراخًا: "زواج عتريس من فؤادة باطل!" وصيحات وهتافات يتمنى معها عتريس لو أصابه الصمم حتى لا يسمعها بعد أن فشل في قطع ألسنة كل الناس، وينتفض أحد المكلومين لقيادة أهل القرية الذين يحاصرون قصر عتريس ويصبّون عليه نيران الغضب، لتحاصره بين جدران قصره.

قالوا: إن عتريس هو عبد الناصر، وفؤادة هي قلب مصر، والقرية هي كل مصر، وأن هناك تلميحًا لتغييب الدستور وتكميم الأفواه.

واحتدم الخلاف بين "مسامح" في عرض الفيلم، وبين "رافض" لهذا العرض، ومُطالِب بأن يكفي على الفيلم "ماجور"، وشاركوا بذلك في صنع دعاية ضخمة للفيلم.

ورأى البعض أن يرفع الأمر إلى الرئيس عبد الناصر، فأرسلوا له "بكرات" الفيلم، ليتم عرضه عليه ومعرفة هل سيلاحظ أن هناك وجه شبه بينه وبين عتريس أم أن الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا في خيال الرقباء. وشاهد ناصر فيلم "شيء من الخوف"، وعلى الفور اتصل بالسيد ثروت عكاشة قائلاً له: "يا ثروت مشّي الفيلم.. الفيلم بيتكلم عن عصابة، طيب لو احنا عصابة كانت الجماهير خِلْصت منّا مِن زمان". ويبدو أن البعض "صعب عليه" أن يأتي القرار من عبد الناصر مؤيدًا لعرض الفيلم فقالوا إنه ذكاء من عبد الناصر حتى لا يحقق شهرة لصناع الفيلم، أو حتى لا يتسرب إلى الخارج!

السادات شاهد على ميرامار:

أما حكاية فيلم ميرامار، فقد حدث أن كلف جمال عبد الناصر، السادات لمشاهدة الفيلم – وهو عن قصة الأديب الكبير نجيب محفوظ – بعد أن اشتد الهجوم على الفيلم واعتبروه مهاجمًا لتنظيم الاتحاد الاشتراكي "أحد تنظيمات ثورة يوليو" وباعتبار الفيلم ممثلاً للرجعية، وأنه يسخر من الأوضاع، وبعد أن شاهد السادات الفيلم رفع تقريره إلى عبد الناصر بأن الفيلم ليس به ما يدعو لمنع عرضه!

أفلام ما بعد الرحيل:

وبعد رحيل عبد الناصر – تمامًا كما في حالة رحيل أي عهد أو نظام – ظهرت أفلام عديدة تنتقد بعنف، بعضها مجاملة للحكومة الجديدة، وبعضها لأنها حصلت على حريتها الكاملة، والبعض الآخر حاول أن يقدم التاريخ و"التأريخ" لسلبيات مرحلة، ومن الأفلام التي انتقدت بعنف فيلم "الكرنك" الذي أخرجه على بدر خان عام ١٩٧٥ وتقاسم بطولته سعاد حسني، وكمال الشناوي، ونور الشريف، ومحمد صبحي، وفيه تعرية لما سمي بمراكز القوى.

وبعدها انهمر سيل الكتابات المعادية للعهد الناصري، ولكن قليلين مَن انتقدوا الثورة في السينما، ربما لأننا مازلنا نعيش في عصر الثورة.

محاكمة عبد الناصر:

ومن الأفلام التي ظهرت وتحوي إسقاطات إدانة لفترة الحكم الناصري، ذلك الفيلم الذي عاد به المخرج الكبير صلاح أبو سيف بعد غيبة طويلة عن العمل، وهو فيلم "البداية" الذي شارك في كتابة الحوار له لينين الرملي عن قصة صلاح أبو سيف في إطار كوميدي سياسي، وفيه محاكمة بالتلميح لثورة يوليو ١٩٥٢، وكانت طريقة أبو سيف في ذلك هي استخدام الإشارات والأسماء والرموز، مرورًا باستخدام موسيقى الأناشيد والأغاني الوطنية في فترة الستينيات مع تحوير لكلماتها.

والفيلم باختصار يدور حول طائرة تسقط في الصحراء ليجد مجموعة من الركاب الناجين أنفسهم متناثرين على الرمال، هذه الشخصيات هي تقريبًا ممثلة لفئات المجتمع، ففيها رجل الأعمال والفنان التشكيلي والراقصة والفلاح والطفل والصحفية والرياضي. وتلمع في رأس نبيه بك فكرة السيطرة على واحة يعثرون عليها، بها الماء والثمار والجو الآمن، ويحاول نبيه الحصول على دور الزعيم، وهو ما ينجح فيه عن طريق لعبة الحظ، ويبدأ في استغلال الجميع: الملاكم ليحميه من أعدائه - أعداء الوطن في رأيه - والصحفية لتمجيد أعماله في صحيفة الحائط التي تصدرها، والفلاح في جني الثمار "التمر"، والباقي يعمل من أجل إنشاء مصنع للخمور من فائض التمر الذي يدخره على حساب اقتطاع جزء من حصة مَن لا يرضى عنه.

هذه هي اللعبة التي تدور حولها حدوتة "البداية"، والتي تحمل تلميحات حول الحقبة الأولى من عمر الثورة المصرية من خلال مجموعة من الإشارات والرموز، وقيل أن صلاح أبو سيف ينتقد شيئًا محددًا من خلال الفيلم، وهو تأكيد الاتهام الموجه لعبد الناصر بأنه سمح لعناصر الثورة المضادة التي ظلت تترقب الفرصة للانقضاض وتحقيق مكاسبها الخاصة. والتي كانت - سواء وهي تدري أو لا تدري - توجه طعناتها إلى الثورة ومفجرها.

وهكذا كان للسينما دور في تمجيد السلطة أو محاكمتها!!

15

فرانك سيناترا: الفن والمافيا

(وانكشفت علاقته بالمافيا بعد ذلك عندما اختطف ابنه [فرانك] من أحد الفنادق، ولم يفرج عنه إلا بعد ثلاثة أيام، وبعد أن دفع سيناترا فدية قدرها [٢٤٠] ألف دولار، واتضح أنها كانت وسيلة للانتقام من سيناترا بواسطة المافيا بعد ساءت العلاقة بينهما)

فرانك سيناترا ١٩١٥ – ١٩٩٨:

هذا النجم كان حالة خاصة في تاريخ الفن، وقد كان لطول عمره الفني وحيويته أثر على عمق واتساع رقعة أعماله وإنتاجه، من ملايين الأسطوانات التي تركها في حوزة عشاقه، و٦٠ فيلمًا سينمائيًّا، وجولات فنية شملت معظم أنحاء العالم، وحلقات خاصة بالتليفزيون، ومئات الملايين من الدولارات، صرف بعضها على الجمعيات الخيرية، وقليلون هم الفنانون الذين استطاعوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه سيناترا.

ونستطيع أن نقول: إن أسلوب سيناترا في العمل كان فائقًا، وكان عطاؤه كنجم يؤكد أن موسيقاه وأغانيه سوف يكون لهما صدى كبير طوال القرن العشرين، وربما ما تلاه من قرون، ما بقيت فنون الصوت.

وقد كان سيناترا فنانًا وإنسانًا قويًّا، بغضّ النظر عن التناقضات الموجودة في حياته، وكان متحمسًا لفنه، مدركًا لطبيعة جمهوره، وعلى المستوى الإنساني كان قويًّا وسريع الغضب إلى الدرجة التي ألقت بشكوك كثيرة مِن قِبل الجمهور على سيناترا الإنسان.

ولد سيناترا في ١٢ ديسمبر من عام ١٩١٥، وهو إيطالي / أمريكي، كان أبوه ملاكمًا – ولعل ذلك أورث الطفل سيناترا بعض صفات العنف والمقاتلة – وتحوّل الأب فيما بعد إلى رجل مطافئ، أما الأم فقد كانت ساقية في أحد المطاعم، وكانت تحب أن تغني للأسرة عند اجتماعها، وكان الجيران معجبون بصوتها، ولقد تأثر سيناترا كثيرًا بأمه في هذا الميل تجاه فن الغناء، وأكد عنده هذا الاتجاه تأثره خلال فترة المدرسة العليا بأحد مدرسيه، وردد سيناترا في شجاعة الأغاني الجماعية على جيرانه، وظهر على أحد المسارح الأهلية الصغيرة كفنان هاو يغني ويلقي النكات(!)، ويمثل دور مدير مراسم وتشريفات، وهذا يكشف عن جرأة غير عادية يتمتع بها فرانك، وقد تم شطب اسمه بعد إدراجه بفصل دراسي واحد في معهد هوكين ستيفن، ولكنه كان قد تعرف على نانسي بارباتو، التي أصبحت فيما بعد أولى زوجاته وأمًّا لأطفاله الثلاثة.

وفي عـام ١٩٣٩ حـدثت أولى المفاجـآت في حياته، فقد استمع العازف "ترمبيتر" هاري جـيمس إلى واحـدة مـن أغاني سيناترا في محطة الراديو بنيويورك، فاستأجره كمطرب لفرقته، وقـد جـال سـيناترا مـع جـيمس حتـى نهايـة العـام، حيث قابل عازفين آخرين بقيادة تومي دروسي، واتفق الاثنان في الحال، وترك سيناترا فريقه واتجه إلى دروسي، وهو ما يعدّ أهم قرار أنجزه سيناترا، وقد لمس دروسي سيطرة سيناترا على نفسه، وعبقرية موسيقاه التي لا تنضب، وطريقة أدائه مع النوتة الموسيقية.

ويقـول الخـبراء: إن سـيناترا كانـت لـه حنجـرة قـوية تـستطيع أن تتـناغم مع ١٦ نغمة موسـيقية دون أن تحـصل عـلى "شـهيق"، والأكثـر من ذلك أن سيناترا كان يؤمن بأن المغني يجب عليه أن "يشخّص" الأغنية، لا أن يلقيها كما هي.

وفي سبتمبر ١٩٤٢ قرر سيناترا أن يعمل منفردًا، وارتفع نجمه ولم يتقوقع في هوليوود – بعـد أن أصبح نجمًا سينمائيًّا – ولكنه تجول في سلسلة من الحفلات الموسيقية، كما قدّم حفلات للراديو.

وقـد أراد لنفسه في مرحلة من مراحل حياته أن يكون هزليًّا مسلّيًا، ولكنه كان ذا صوت سـاخر خـيالي.. صـوت صـداح.. عمـيق، جعـل الجمهـور يصرخ من الانتشاء، أو بالعبارة المختـصرة لـشركة P. R عـنه إنـه "الـصوت الـذي أثار الملايين"، وقد حظي سيناترا بشهرة واسعة في النصف الأول من حياته.

أسلوب جديد:

* وأثـناء سـنوات الحـرب العالمـية الثانـية، التـي أعفي منها بسبب ثقب في طبلة الأذن، جـاءت لـه نانسي الزوجة بوجهها المشرق، بأكبر طفلة له، والتي استوحى منها سيناترا نغمات تعتـبر من أخصب فترات حياته، فلحّن من وحيها أربع أغنيات هي: "عندما يذهب الحب"، "الأغنـية هـي أنـت"، "الحمقـى يهـرعون"، "وأبدأ الموسيقى"، ثم أضاف إليهم أغنيته "لقد حدث شرخ معك" من وحي علاقته بزوجته نانسي.

وفي ديسمبر من عام ١٩٤٦ اتخذ سيناترا قراره الصعب والخطير عندما منع المراهقين من حـضور حفلاتـه للإذاعـة، وكـان ذلـك تمهيدًا لقراره بأن يجعل الأنغام بطيئة لتناسب الفئات العمـرية الأخـرى، بل وبدأ يغني الكلمات الرزينة. ومشاركة منه للحالة العامة خلال الحرب

العالمية الثانية، فقد غنى موشحات دينية وأغاني شعبية للأمريكان، ووعظ بالتسامح والوحدة القومية، كما في فيلمه القصير - عام ١٩٤٥ - "البيت الذي أحبه"، والذي فاز بجائزة الأكاديمية الخاصة في العام التالي، وبهذا العمل استطاع أن يكسب حب العامة، كما اكتسب احترام الفنانين، فقال عنه مغني البوب "ديوني ورك" إنه أعظم مغنٍّ عاش حتى الآن وأضاف إنه - سيناترا - يستطيع أن يغني دليل التليفون ويجعلك تؤمن به.

زوجات وعصابات:

ولكن السيدة التي كادت تحطم سيناترا حقًّا، هي الممثلة النجمة "أفا جاردنر"، التي شعر بضعف شديد أمامها، وكانت علاقته بها - قبل الزواج - سببًا مباشرًا في طلاقه من زوجته نانسي، إلى أن تزوج سيناترا من جاردنر عام ١٩٥١، لينفصل عنها بعد عامين فقط من الزواج، وإن كان الطلاق الرسمي قد وقع بينهما متأخرًا في عام ١٩٥٧، وكان فشله في هذا الزواج سببًا في التدمير الكامل له، فقد ظل سيناترا يتكلم عنها في أحاديثه الخاصة بألم وبجرح عميقين، لدرجة أنهم وصفوه بأنه يشعر بالراحة إذا تغير الموضوع بعيدًا عنها، وهذا الرأي كتبته زوجة سيناترا الثالثة "ميافارو" في سيرتها الذاتية بعنوان "مَن الذي سقط بعيدًا؟".

وفي سياق الحديث عن رحلة سيناترا مع الفن والحياة، يجدر الحديث عن تسجيل بداية اللغط الذي ثار حول علاقاته المشبوهة مع جهات عديدة، ليس آخرها السلطة ولا أخطرها المافيا (!).

ففي فبراير ١٩٤٧، واجهته عاصفة عندما انطلق يتخطى الشائعات، فيرحل مع عضو في عصابة سالز لوكينو، وظلت التقارير الصحفية والاستجوابات الحكومية تبحث عنه وتلاحقه، وتضعه مع أعضاء العصابات سيئة السمعة من بوجس إلى جيمي وفرانتينو، وكان شيئًا سيئًا أن تنشر تقارير صحفية للعامة تدين سيناترا كمتقلب ومتذمر، وأنه يقوم بمهاجمة الآخرين لفظيًّا وبدنيًّا، مشيرة إلى رحلته من مساعد نادل إلى ساقٍ، إلى احتلال لمكانه كأحد نجوم السينما.

وتصنفه لجنة الأنشطة الأمريكية كمتعاطف مع الشيوعية، حيث أجبرته على الحضور إلى واشنطن لإدانته، وتم على إثر ذلك إقصاؤه من الراديو ومقاطعة أستوديوهات MGM له.

قابل سيناترا الأمر بصدمة شديدة حطمت معنوياته، فأغرق نفسه في الخمر، وعانى من نزيف بالزور أثر على صوته تأثيرًا سلبيًّا بليغًا.

إلا أن سـيناترا قـد قابل الهجوم، بالالتفاف من حوله، وبمحاولة وضع درع له يقيه غدر الأزمـات؛ فقـد اتجـه ناحية السياسة، وساند المرشحين الديموقراطيين، وحارب ضد التمييز العنـصري، في الـوقت نفـسه الذي كان ينسجم فيه مع مؤيدي التمييز العنصري، وإن كان في المساء يحرص على صعود المسرح إلى جوار المغنين السود.

إلى جانـب هـذا كـان سيناترا مـتعدد العلاقـات الغـرامية، وشملت مغامراته عددًا من الـشهيرات منهن: لانا تيرنر، مارلين ديتريش، ناتالي وود، لورنين باكال، كيتي كيلر، إليزابيث تايلور، وفيكتوريا برنسيبال.

واستمرت جهود سيناترا السياسية؛ فقد ساعد روبرت كنيدي، وكتب من أجله "الآمال العليا" كأغنية تحث المواطنين الأمريكان على انتخابه للرئاسة.

ولكن لم ينس سيناترا طموحه الفني، فقد قدم عام ١٩٦١ مجموعة ألبومات باسمه مثل: "سيناترا في ضوء القمر" و"سيناترا والأوتار".

والمثـير أن سـيناترا كان يلقَّب بين أصدقائه أمثال: رات باك، دين مارتن وسيرلي ماكلين، بلقب الرئيس.

وفي عـام ١٩٦٩ وبعـد تـسعة أشـهر مـن وفـاة أبـيه، اسـتدعي للمحاكمة من قِبل لجنة الجريمة المنظمة، ومَثل أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة التي أدانته.

ومـع مطلـع الـسبعينيات انضم إلى الحزب التحريري، تاركًا حزب اليمين الذي كان من مـؤيديه منذ بداية الستينيات، ثم ظهر عام ١٩٧٢ كمساند للرئيس ريتشارد نيكسون في إعادة حملـته الانتخابـية، وفي عـام ١٩٧٣ أعـاد ألبومه "كل العيون الزرقاء هي سوداء" التي فازت بالأسـطوانة البلاتينـية بعـد أن وزعـت مليـون نسخة، وأذاع التليفزيون العديد من الحفلات الموسيقية التي جذبت إليه مئات الملايين من جميع أنحاء العالم.

وكـان لـه مـوعد جديـد مـع الزواج في عام ١٩٧٦، عندما تزوج مرة أخرى من "بربارا فـاركس" الـزوجة السابقة لماركس براذر زيبو، وهو الزواج الذي استمر أكثر من عقدين من الزمان حتى وفاة سيناترا عام ١٩٩٨.

ولم يـتوقف سـيناترا حتـى وهـو في هـذا العمـر عـن صداقته مع السلطة، فها هو يصبح صـديقًا مقـرَّبًا مـن الـرئيس الأمريكي رونالد ريجان، ويظهر ليراقص زوجته نانسي ريجان في حفلات خاصة.

وفي عـام ١٩٨٣ تـشاجر سـيناترا مـع صـديقه "ديـن مارتن" في مدينة أطلانتك، أثرت نفـسيًا في هـذا المغنـي الـذي لم يكن يومًا بهذا الضعف، فانغمس في ألعاب القمار، وابتعد عن المسرح لمدة ١٤ شهرًا.

ثـم نجـده عـلى جانـب مـن الصورة، صورة الضعف والهوان والاستكانة في خناقته مع ديـن، نجـده عـلى الجانـب الآخر في عنفه وعصبيته اللتين عُرِف بهما عندما نشرت الواشنطن بوسـت مقـالاً أغـضبه، حيـث هـدد الجمـيع في الجريدة بقوله: كل شخص منكم يعتبر نفسه ميتًا"!

ويـبدو أن ذلك كان بداية الأزمة الحقيقية بينه بين الصحافة التي انقضّت عليه، بمقالات فـيها هجـوم عنـيف، واتهامـات قاتلة، وصدرت الكتب، ومنها السيرة الذاتية له التي نشرتها الـصحفية كيتـي كيلـر، وصـفت فيها سيناترا بأنه شخص غير مخوّل للعمل، ولكنه قد يكون بائعًـا ممـتازا، وفي العـام نفـسه قـام مخـرج الرسـوم المتحركة دونسبري، وجاري زودو برسم سلاسل من الصور لسيناترا جنبًا إلى جانب مع أعضاء العصابات!

وهـنا انفجـر بـركان مـن الغـضب حـول هـذا الفنان، بل بالأدق حول فرانك سيناترا، فالحـديث في هـذه الفـترة لم يكـن عن سيناترا (الفنان)، بل عن سيناترا الإنسان.. المشاغب.. المغامر.. المقامر.. والذي بدأ الربط بينه وبين أفراد العصابات والخارجين عن القانون..

تَحَوَّل المجد الذي بناه بسواعد فتية، موهوبة، إلى (عار).. يجب أن يتوارى سيناترا مع كل إشارة من إبهام يوجه إليه.

وما أصعب أن يتحول الحديث من إعجاب وانبهار، إلى غمز ولمز وخزي وعار!

فـما بالـك وقـد أصبح الهمس حديثًا بالصوت العالي وفي قنوات إعلامية تتلقف القصة الخـبرية المثـيرة، والحدوتـة الفاضحة، والحقيقة العارية من أية محاولة للتجميل أو التلطيف.. ومَن يملك أن يتقدم لتجميل حقيقة قبيحة؟!

ولكـن جمال الفن – في رأيي – يأتي من كونه غير قابل للتأثير بالشوائب الشخصية، فكم مـن فـنان سـكير، عـربيد، أضحكنا ليس على سكره، ولكن بموهبته. ولذلك بقي "سيناترا" وغيره، ما بقيت أعمالهم وإبداعاتهم.

وأنا أكتب هذه السطور، وكلي تعاطف مع هذا النجم، الذي شبّ على الفن.. وشاب على الفضيحة!

سأستمع إلى سيناترا، وسأكتم ما بقي من سيرته الذاتية..

بعضهم قال: إنه كان على علاقة صداقة بزعماء العصابات.

وبعضهم قال: إنه كان يقدم زعماء المافيا إلى شهيرات السينما والمجتمع!

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه سيناترا على علاقة بأعلى قمة في السلطة الأمريكية.. الرئيس الأمريكي كيندي، الذي ساعده سيناترا أثناء حملته الانتخابية وطاف معه الخمسين ولاية يغني له ويمجده، وعندما فاز أقام له سيناترا حفلاً ضخمًا عشية يوم توليه السلطة، بيعت تذاكره بأسعار تتراوح ما بين ١٠٠٠ و١٠.٠٠٠ دولار للتذكرة الواحدة، وساهم بالعائد الضخم لهذا الحفل في تغطية نفقات جزء من الحملة الانتخابية التي بلغت تكاليفها أكثر من مليون دولار، بقيمة دولار عام ١٩٦٠!

وطبعًا كان منطقيًّا أن يستغل زعماء ألمانيا اسم سيناترا وقربه من السلطة في تمرير بعض الصفقات، واستمر هذا الوضع حتى تسلم روبرت كيندي – شقيق الرئيس – مهام وزارة العدل، وأعلن الحرب على العصابات المنظمة، فجاء اسم سيناترا كواحد من الذين يساعدون هذه العصابات، حتى ولو لم يكن متورطًا في جرائم مباشرة، وجاءت الواقعة التي استند إليها روبرت كيندي في تقريره إلى الرئيس الأمريكي، عندما جاءه تقرير من الشرطة يقول: إن أحد زعماء المافيا يطلب مقابلته بغرض إنهاء المراقبة عليه، وأنه ذكر اسم فرانكي (فرانك سيناترا) كوسيط لهذا الطلب!

وكانت تلك الواقعة كفيلة – خاصة في حالة نظام يخشى على سمعته ويراقبه الشعب – بإنهاء شهر العسل بين سيناترا وكيندي، لكنه لم يَنْسَ لروبرت كيندي – الشقيق – أنه كان السبب وراء هذا الفراق، فعمل ضده فيما بعد في انتخابات عام ١٩٦٨.

وهنا تأتي عبارة قصيرة ولكن لها دلالتها الواضحة في تحديد معالم – أو جزء مهم من هذه المعالم – شخصية سيناترا، عندما تقول الأم: "إن ابني مثلي لا ينسى ولا يغفر".

وفي تقرير (وثيقة) صادر بتاريخ ٣ أغسطس عام ١٩٦٢، جاء أن سيناترا كان على علاقة بعشرة زعماء للمافيا في الولايات المتحدة في الفترة ما بين الخمسينيات وأوائل الستينيات؛ ففي

عـام ١٩٦١ قدم سيناترا مطلقة حسناء عمرها ٢٨ سنة إلى زعيم المافيا سام جيانكانا، كما قدم لـه بعد ذلك المغنية فيليس ماك جوير، وكان سيناترا قد ورط جون كيندي في علاقة خطرة مع امرأة تدعى جوديث كامبل كانت على صلة مع سام جيانكانا.

وانكـشفت علاقته بالمافيا بعد ذلك، تحديدًا في عام ١٩٦٣، عندما اختطف ابنه "فرانك" مـن أحـد الفـنادق، ولم يفـرَج عـنه إلا بعد ثلاثة أيام، وبعد أن دفع سيناترا فدية قدرها ٢٤٠ ألـف دولار، واتـضح أنهـا كانـت وسـيلة للانـتقام مـن سيناترا بواسطة المافيا بعد أن ساءت العلاقة بينهما.

وهـو الأمـر الـذي دعا روبرت كيندي إلى إحكام الرقابة عليه، ثم تحذير كيندي الرئيس من الصداقة معه.

ولطـرافة الخبر وإثارته – خبر اختطاف ابن سيناترا ثم القبض عليه – تعالوا نتذكر كيف تناولته وكالات الأنباء وقتها:

الخبر الأول: اختطاف ابن المغني فرانك سيناترا/ بوليس لايتين بأمريكا يطارد المجرمين في الغابات...

وتفاصـيل الخـبر الـذي جـاء في الصحف الصباحية يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٦٣ تقول: اختطف رجلان مسلحان ابن فرانك سيناترا المغني المعروف، كان سيناترا الصغير وعمره ١٩ عامًـا مـع صـديق لـه في فندق على حدود ولايتي كاليفورنيا ونيفادا، وقام رجال البوليس في الولايتـين بمطـاردة المجرمين في الغابات.. قال صديق سيناترا الصغير ويدعى "جون فوس" أنهما كانـا في حجرتهما حوالي التاسعة مساء وطرق الباب شخص قال: إن معه طردًا لسيناترا. وفتحـنا الـباب فـدخل رجـل يـرتدي جاكت الانزلاق على الجليد وصوّب نحوهما مسدسه، وبعـد أن أخـذ كـل مـا كـان معهما من نقود أمر سيناترا بالخروج معه، وكان هناك رجل آخر ينتظـر في سـيارة، وسرعـان مـا تحركت السيارة فاستطاع أن يلتقط ثلاثة أحرف من أرقامها، وأسرع رجـال البولـيس بـإغلاق جميع الطـرق المحـيطة بالمنطقة التي تسمى "ستيت لاين"، وهـي في ولايـة كاليفورنـيا في شهر نوفمبر الماضي؛ أحدهما يدعى جوزيف سورس، والآخر تـوماس كيتـنج، وهما من الشخصيات الخطرة إلى أقصى حد"، والكلمات السبعة الأخيرة هي مـا تعنيـنا، ولعلـه يمـيل بنا إلى ترجيح انتماء الخاطفين إلى عصابات المافيا، ولكم أن تلاحظوا الأسلوب الذي تمّت به عملية الاختطاف.

وبعد نشر هذا الخبر المثير بخمسة أيام جاء نشر الخبر التالي والأكثر إثارة: (١٥/ ١٢/ ٦٣) "القبض على العصابة التي خطفت ابن سيناترا / البوليس الأمريكي يسترد الفدية من أفراد العصابة: نجح مكتب المباحث الجنائية الفيدرالي في العثور على خاطفي ابن المغني المعروف فرانك سيناترا، وفي استعادة معظم المبلغ الذي استولى الخاطفون عليه وقدره حوالي ربع مليون دولار. وقالت وكالات الأنباء إن هذا الحادث أكثر حوادث الاختطاف إثارة منذ الحرب العالمية الثانية. وظهر أن الخاطفين ثلاثة: أحدهم كان زميلاً في المدرسة الثانوية لنانسي أخت سيناترا الصغير المخطوف، والثاني يعمل نقاشًا، والثالث ملاكم محترف".

المقابــل:

ولكن هل كان يستفيد فرانك سيناترا من علاقته بعصابات المافيا مثلما استفاد – تأكيدًا – من علاقته بالسلطة ممثلة في الرئيس كيندي؟ لعل الإجابة تكمن في هذه الواقعة..

سبق أن ذكرنا أن سيناترا كان على علاقة قوية بأحد أبرز الوجوه في عالم المافيا، وهو الرجل ذو الوجه القبيح "سام جيانكاتا" الذي يعدّ خليفة آل كابوني في شيكاغو، وأحد أبرز الرءوس في "لاكوستا نوسترا" – نقابة الجريمة العالمية – وهذا الرجل – في أيام العسل بينه وبين سيناترا – كان يفرض حمايته على فرانكي، حتى إن هناك واقعة شهيرة حدثت كان بطلها أحد نجوم الكوميديا في ملاهي لاس فيجاس ويدعى "جاكي مانسون"، وكان هذا الفنان يقدم فاصلاً من تقليد الفنانين في صالات الملاهي، ومن بين النجوم المقلَّدين كان فرانك سيناترا الذي كان يستخدمه كمادة للسخرية وإضحاك الزبائن بقفشات ساخرة لاذعة، إلا أن هذه القفشات لم تعجب سيناترا وأثارت استياءه، ونقل هذا الإحساس لصديقه رجل المافيا، وفي اليوم التالي لإعلان غضبه كان جاكي يجلس في سيارته على قارعة الطريق مع إحدى صديقاته، ليتقدم منه رجل ضخم الجثة، قوي البنيان، ويمد يده عبر نافذة السيارة، بلكمة قوية من يده التي كانت مكسوة بغطاء من الحديد، ليكسر أنف الفنان الكوميدي وفكّه، قائلاً في لهجة حاسمة تخلو من أي رحمة: هذا مجرد تحذير فقط، والويل لمن يسخر من صديقنا سيناترا"!! والمفاجأة أن جاكي – النجم الكوميدي – المضروب – رفض أثناء التحقيق أن ينطق حرفًا واحدًا مما سمع، أو أن يتّهم سيناترا الذي لا يجرؤ أحد على معاداته!

إذًا فسيناترا كان يريد (الحماية) من عصابات المافيا، أو أنه حصل عليها – ولو بالمصادفة – ولكنه قبلها ورضي بها!

دليـــل:

ومـن الأدلـة على علاقته بالمافيا ذلك الكتاب الذي خطه قلم ابنة "سام جيانكانا" نفسه، وتدعـى "أنطوانيت"، وصدر تحت اسم "أميرة المافيا"، وفي الفصل الذي يتحدث عن علاقة أبيها بفرانك سيناترا، تقول: إنه كانت بينهما علاقات مادية تتعلق بإدارة أحد الكازينوهات في ولاية نيفادا المسموح فيها بلعب القمار، وذكرت – نقلاً عن تقارير وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A) – أن سيناترا كان يستثمر أمواله سرًّا مع والدها "جيانكانا".. وهو اتهام – إن صحّ – فإنـه يلقـي بـتهمة التعامل المباشر بين سيناترا وزعماء المافيا، وهو نوع آخر من الاستفادة.. المال يا عزيزي!!

وذكـاء سـيناترا ولباقـته هي التي جعلته يرد على سؤال: إنك تعامل رجال المافيا معاملة خاصـة، ولـك صـور معهم، فقال: "مصافحة شخص ومعرفته شيئان مختلفان جدًّا.. إنني لم أكـن أعـرف حتى أسماءهم، فكيف لي أن أعرف عملهم أو تاريخ حياتهم؟". وعندما واجهه بتهـريب ملـيوني دولار بواسـطة رجـل المافـيا سـيئ الـسمعة "تكي لوشيانو" رد عليهم: إذا استطعتم العثور على مبلغ المليوني دولار، فإني أهبها لكم!"..

إجابات إن لم تكن صادقة فهي مدربة!

ومـن بـين الأسـئلة التي تثار في حياة سيناترا الشخصية هي: هل كان يعتزم حقًّا الزواج من مارلين مونرو؟

طـبقًا لـوجهة نظـر كـتاب جديـد هو "سيناترا الإنسان فيما وراء الأسطورة" أن سيناترا اعتـزم طلـب يـد مونـرو قـبل وفاتها بأسابيع قليلة قائلاً بثقة شديدة: إنه "لا أحد يستطيع أن يقـترب مـنها إذا مـا كانـت زوجـة سـيناترا". ولاحظـوا هذه الثقة المفرطة التي لا ندري هل اكتـسبها مـن قـربه مـن الـسلطات الـسياسية أم من سلطة العصابات؟! وقد ذُكر أن سيناترا حـاول أن يـشجعها عـلى أن تـبدأ حـياتها من جديد مرة أخرى، ولكنها ردت بقولها الغامض "ولِمَ المتاعب؟.. إنني لن أكون هنا لفترة طويلة"..

وبعد ذلك بقليل ماتت مونرو.. بيدها أو بيد غيرها!!

***

16

مارلين مونرو.. واللعب مع الرئيس

(الفنان بتكوينه وبطبيعة عمله طموح، وهو يسعى دائمًا إلى [القمـة]، والقمـة لـيس لهـا آخـر، كـما أنهـا لا تتـسع لشخصين فكلما صعد إلى [فوق] أدرك أن هناك درجة أعلى لم يـصل إلـيها، ولـذلك فهـو في حالـة سـعي دائم، وسفر، وبحـث عـن المجهـول.. يظـل كـذلك حتى يتوقف بفعل الزمن أو.. يسقط بفعل فاعل)

المفكرة الحمراء:

إن أكبر الألغاز في حياة مارلين مونرو، والذي يثير عشرات من علامات الاستفهام حول تورطها - أو عدم تورطها - في نشاط مخابراتي، وفي الوقت نفسه يضع علامات استفهام أخرى حول تورط أجهزة أو سلطات في حادث مصرعها، هذا هو ما قيل عن مفكرتها الحمراء التي ظلت تحتفظ بها حتى لحظة الوفاة المدبرة - سواء بمعرفتها أو بمعرفة آخرين - وكان أحد أصدقاء مونرو وهو الفنان (روبرت سلاترز) شاهدًا على حقيقة هذه المفكرة الحمراء التي اطلع عليها بنفسه عندما اتصلت به مونرو في منتصف يوليو ١٩٦٢، وكشف سلاترز عن بعض محتويات هذه المفكرة فقال: المفكرة كانت تضم معلومات تتعلق بنشاط الحكومة الأمريكية، وخطط الأمن القومي الأمريكي مثل: إقدام إدارة جون كينيدي على اغتيال الزعيم الكوبي (فيدل كاسترو) بواسطة عصابات المافيا وبعض المنشقين الكوبيين الموجودين على أرض الولايات المتحدة، كما ضمت المفكرة الحمراء الخاصة بمارلين مونرو معلومات عن التجارب النووية، وكذلك معلومات عن تورط المطرب المعروف (فرانك سيناترا) مع عصابات المافيا، ومعلومات عن حركة الحقوق المدنية للسود الأمريكيين التي كانت تهدف إلى القضاء على العنصرية في المجتمع الأمريكي، ومعلومات أخرى عن مساعدات أمريكية للمتمردين الكوبيين.

وعندما أبدى سلاترز دهشته من احتفاظ مونرو بمثل هذه المعلومات الفائقة السرية، وتساءل في قلق عن مصدر هذه المعلومات، قالت مونرو: إنها كتبت هذه المعلومات من أجل أن تبحث عن مزيد من التفاصيل حولها لتقرأها!

ولكن هذا الذي قالته مونرو لم يكن مقنعًا لصديقها الذي استدعته في هذا اليوم متوسلة، وقابلته متنكرة، كما لو كان هناك مَن يطاردها.. وبالطبع فإنه لا يبدو مقنعًا لنا أيضًا!

التليفون الغامض:

لم يكـن هـذا هـو كـل مـا كانت تمتلكه مارلين مونرو من معلومات سرية ودقيقة، بل إن بعـض أصـدقائها بالإضافة إلى بعض المعلومات التي تسربت من التحقيقات في قضيتها تؤكد أن لديها من المعلومات ما يتجاوز الحد المسموح به!

وأكثـر مـن هـذا، فـإن أحـد أصدقائها المقربين كشف عن أن مونرو كانت قد اتصلت به تليفونـيًّا قـبل انـتحارها أو مـصرعها، وكـشفت لـه عن معلومات في لحظات ضيق وغضب وفضفضة، ووصف هذا الصديق أسرار مونرو التي أذاعتها له عبر الهاتف بأنه لو كشف عنها لاهتز العالم كله لهذه الأسرار!

وبالطـبع فـإن هـذا الاتصال التليفوني قد انقطع فجأة، وضاع صوت مونرو بدون سبب واضـح، ممـا يعطـي إيحـاء بـأن تلـيفونها كـان مـراقبًا (طبعًا)، وهو ما كان يدعوها للاتصال بأصـدقائها عـندما تـود مقابلة أحدهم خارج منزلها، بل إنها كانت تلتقي بهم متنكرة كما سبق الإشارة!

ولم تكن هذه هي كل الألغاز المتعلقة بجهاز التليفون في حياة مونرو، بل من أكبر الألغاز في قـصتها أنـه قـد تـم اكتـشاف مقـتلها بينما هي تمسك بسماعة التليفون، مما دفع بالكثيرين – ومنهم صحفيون – لأن يحاولوا الحصول على شريط التسجيل الخاص بمكالماتها الأخيرة عن طريق شركة الاتصال، وكانت المفاجأة أن هناك مَن سبقهم إلى هذا بناءً على طلب من روبرت كيـندي، وقـيل في ذلـك الوقت إن الذين قاموا بالمصادرة هم قسم العمليات القذرة في وكالة المخابرات المركزية فرع لوس أنجلوس.

والمثـير في الأمـر أن الـذي احـتفظ بأشرطة تسجيلات المكالمات الأخيرة لمونرو هو وليم باركر الذي كان يبتز بها روبرت كيندي من أجل تنفيذ وعد الأخير له بأن يكون رئيسًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي "FBI".

فـماذا كانـت تحـتوي هذه الأشرطة؟ ومع مَن كانت مونرو تتحدث لآخر مرة في حياتها؟ وما هو وجه الخطورة من جراء هذه المكالمات؟

تـشير الدلائل إلى أن مونرو أصبحت خطرًا على السلطة بما كانت تعرفه وتخزنه، سواء في مفكـرتها الحمـراء أو في ذاكـرتها، وهـي ذاكـرة شـابة لفتاة لعوب – لا أمانَ لها – في السادسة والثلاثـين مـن عمرها؛ أي في سن المغامرة والمقامرة واللعب بالنار، خاصة لمن يمتلك طموح

نجمة وصلت إلى رأس القمة المدببة، بالإغراء.. والعري.. واقتحام أسوار الممنوع، ولكنها لا تكتفي بذلك، بل تبحث في سماء الشهرة عن مزيد من النجومية، وتلهو في بلاط السلطة غير عابئة بالمخاطر التي تحيط بها من كل جانب، رغم أن أطراف ثوبها قد احترقت بالفعل، ولكنها رأت في المخاطر تسلية، وظنت أن في النيران دفئًا.

الأزمـــة:

ولكن.. إذا كان لدى مونرو كل هذه المعلومات الحساسة والمخيفة عن آل كيندي، فمعنى ذلك أن العلاقة بين الطرفين كانت علاقة حميمة ودافئة. فما الذي عكّر صفو هذه العلاقة؟!

بداية، فإن العلاقة بين الفنان والسلطة هي علاقة مصالح، ولا يمكن أن تتطور إلى ما هو أكثر من ذلك؛ فالفنان يريد السلطة من أجل أن ترفعه وتسانده وتعلي من شأنه، وتضفي عليه بعضًا من نفوذها، والسلطة تستخدم الفنان على اختلاف درجات الاستخدام؛ إما بفنه، وإما بدائرة علاقاته.

ولكن..

هناك حدود يجب أن يقدّرها الفنان بذكاء، فيعرف الخط الأحمر الذي عليه ألا يتجاوزه، فإذا تعدى هذا الخط ففيه نهايته.. مع اختلاف النهايات؛ تبعًا لمدى تجاوز الفنان، ومدى خشونة السلطة! وتطبيقًا لذلك على قصة مونرو مع السلطة، يتضح أن أزمتها مع الرئيس الأمريكي الأسبق (جون كيندي) قد تفاقمت عندما غنّت في عيد ميلاده – في شهر مايو السابق على مصرعها – "عيد ميلاد سعيد يا سيدي الرئيس"!

ومع انتشار هذه الأغنية تحولت الهمسات إلى أصوات عالية تتكلم عن علاقة مونرو الدافئة بالرئيس الأمريكي، فخرجت العلاقة من حيز الغرف الضيقة إلى الشوارع والبيوت والطرقات حتى وصلت إلى كل الآذان.

وتهددت المصالح السياسية للرئيس الأمريكي، وأصبحت المكانة الاجتماعية لآل كيندي في خطر، والمستقبل السياسي دائمًا أهمّ وأبقى من النزوات في حياة السياسي المحنّك، فصدرت على الفور الأوامر العليا بإجبار مونرو – مهما كانت إغراءات اللقاء بها – على عدم الاتصال بالرئيس، سواء كانت اللقاءات حية أو صوتية، وتم إبلاغها بالقرار بطريقة فيها قسوة وفظاظة.

والغريب والمثير أن شقيق كينيدي - بوبي - حاول أن يستغل بُعْد مونرو عن الرئيس، بأن يقيم معها علاقة من نوع خاص هو الآخر، إلا أن مونرو قابلت ذلك بازدراء ورفض شديدَيْن.

وتم تسريب خبر مفاده أن مونرو كانت تسعى لتطليق جون كينيدي - الرئيس - من زوجته جاكلين كينيدي - الشهيرة بـ"جاكي" - لتتزوج هي منه، ولعله كان في مخيلة مونرو - إن صحت هذه الرواية - قصة السندريلا التي جاءت من القاع لتتزوج من الأمير الذي تحدّى مِن أجلها التقاليد الصارمة.

وكان لصدور هذا الأمر الرئاسي بمنع مونرو من الاتصال بالرئيس الأمريكي أثر سلبي، أصابها بشرخ نفسي عميق، استلزم مزيدًا من العقاقير المهدئة طلبًا لبضع ساعات من النوم الهادئ الذي حال اضطرابها الشديد بينها وبينه.

ماكياج كامل:

كانت مونرو تدرك أنها رمز للأنوثة الطاغية، وأن هذا هو - أساسًا - سر شهرتها، وسبب إقبال المشاهدين والمعجبين عليها، رجالاً ونساءً؛ إذ وجدوا فيها المرأة التي تهتم بإبراز أنوثتها طوال الـ ٢٤ ساعة يوميًّا، وأنها المرأة التي تعرف كيف تفتن الرجال دومًا، ولذلك كانت أغرب وصية لمونرو أن طلبتْ من الماكيير - أخصائي التجميل - الخاص بها أن يعمل جاهدًا على إدخالها القبر بكامل ماكياجها؛ لتبدو مِلكة متوَّجة حتى وهي في طريقها إلى المقابر.

حتى في الموت!

لقد طلبت من الماكيير ذلك قبل وفاتها بعشر سنوات؛ أي في عام ١٩٥٢، وكانت قد أجرت عملية استئصال للزائدة الدودية، ولم يعجبها الشحوب الذي كانت عليه بسبب إجراء هذه العملية البسيطة، فطلبت من ماكييرها القيام بواجبه، ثم أوصته بتلك الوصية عند وفاتها، وظلت تذكِّره بها كلما حانت الفرصة لذلك!

والغريب أن النجمة القتيلة التي دخلت مقبرتها مِلكة في كامل ماكياجها، لم يتقدم أحد من أسرتها لاستلام جثمانها!

ودُفنتْ مونرو إلى جوار اثنتين من أمهاتها بالتبني هما: جريس ميكي جودارد، وأنا لوار التي كانت مونرو تناديها العمة لوار.

قنبلة:

وفي ملف مارلين مونرو "الأمني" مذكرة غاية في السرية، صادرة عن مكتب المباحث الفيدرالية في مدينة مكسيكو سيتي، تحمل عنوان "مارلين مونرو.. قضية أمنية"، وهي من إعداد القسم (C) الخاص بمكافحة الشيوعية، والمذكرة مؤرخة بتاريخ ١٣/ ٧/ ١٩٦٢ أي قبل ثلاثة أسابيع من نهاية مونرو – بالانتحار أو بالتصفية – وقد تضمنت المذكرة تناول المشاكل السياسية الدولية، ومن بينها الدمار والفزع الذي تسببه "القنابل النووية الهيدروجينية"، وكان هذا هو أول تسريب لهذا الخبر الذي انتقل إلى السوفييت، فقد كان هذا النوع من القنابل غير معروف حتى هذا الوقت. أيضًا أشارت المذكرة إلى العلاقة التي كانت تجمع بين مونرو مع العميل السوفييتي فاندربلت فيلد، وطبقًا لِما جاء في كتاب "الجريمة الكاملة.. مارلين مونرو.. الموت بأمر الرئيس"، مِن أنّ "هناك وثيقة صادرة عن قسم مكافحة الجاسوسية بوكالة الاستخبارات المركزية (C.I.A) تحمل توقيع "جيمس جيسوس أنجلتون"، تشير إلى زرع معدات للتنصت الإلكتروني داخل منزل مارلين مونرو، في الوقت نفسه يُكشف ملف فاندربلت فيلد في الفترة من يونيو إلى يوليو ١٩٦٢؛ أي قبل إجراء تفجير القنبلة الهيدروجينية الأمريكية، ويعزز هذا الأمر الشكوك في حقيقة الدور الذي لعبته مونرو أثناء علاقتها الغرامية العاصفة مع الرئيس وشقيقه"، وكذلك أوضحت التقارير أن عددًا كبيرًا ممن هم على علاقة وثيقة بمارلين يشتبه في كونهم جواسيس محترفين عجزت المخابرات الأمريكية عن الإيقاع بهم، وهذه المعلومات تم الكشف عنها بالفعل بعد سقوط الاتحاد السوفييتي السابق.

وكانت هذه المعلومات أشد انفجارًا من القنبلة الهيدروجينية في وجه الرئيس الأمريكي جون كيندي وشقيقه بوبي.

هذا كله لا يفسر ولا يبرر ما حدث لمونرو يوم ٤ أغسطس ١٩٦٢ وبثته وكالة الأسوشيتد برس في هذا النبأ العاجل:

"مارلين مونرو.. الشقراء الجميلة.. النموذج المشرق للمرح ولحياة هوليوود، ماتت بصورة مأساوية بعد أن عثر عليها عارية في السرير، وهي تقبض بإحدى يديها على سماعة الهاتف، وعلى مقربة منها زجاجة حبوب منومة فارغة من محتوياتها". وأضاف النبأ: "مارلين

مونـرو التـي كانـت في السـادسة والثلاثـين عانـت لفترة طويلة من اضطرابات نفسية، وثمة احتمال لانتحارها"!

إن الخـبر يحمـل تلمـيحات انتـشرت لفترة طويلة حول انتحار مونرو عن طريق تعاطيها لجـرعة هائلـة مـن عقـار مـنوم، ولكـن المعلـومات التي تم الكشف عنها وشارك في تحليلها الحاسبات الآلية العملاقة قالت: إن نسبة الـ ٤.٥ ملليجرام من "الباربيتيوريت" التي وجدت في الدورة الدموية لمونرو، كانت تتطلب أن تبتلع مونرو ما بين ٥٢ إلى ٨٩ حبة من هذا العقار عـن طـريق الفـم، في حـين لم يعثـر عـلى أثر لهذه المادة السامة في المعدة أو في الأمعاء الدقيقة. وتوصـل التحلـيل إلى ضرورة أن وصول هذه المادة كان عن طريق الحقن، وأن ذلك لا بد أنه تم بطريقة بارعة حتى لا تظهر آثار الوخز في شرايين مونرو.

هـذه المعلـومات وتحلـيلها العلمي الدقيق لو صحت، فإنها تكون الدليل القاطع على أن وفـاة مونـرو كانت عمدًا ومع سبق الإصرار والترصد، والفاعل هنا محترف لمثل هذه النوعية من العمليات القذرة..

فمَن قتل مارلين مونرو؟

قبل أن نتحير في إجابة هذا السؤال القديم، علينا أن نسأل أولاً:

ماذا كانت مارلين مونرو تريد.. من الفن، ومن السلطة؟

بل وماذا يريد النجوم والنجمات الذين حذوا حذوها وحاولوا اللعب مع الكبار؟

"تم بحمد الله"

***

صدر للمؤلف

صدر للمؤلف

١- محمد عبد الوهاب.. نساء وألحان.

٢- المُغني.. قصة صعود عمرو دياب.. (دار الخيال)

٣- ألعاب مصرية. (صادر عن دار الهلال)

٤- الفنانون والمخابرات

تحت الطبع:

١- جورج سيدهم والثلاثي.. ٤٠ عامًا من الضحك.

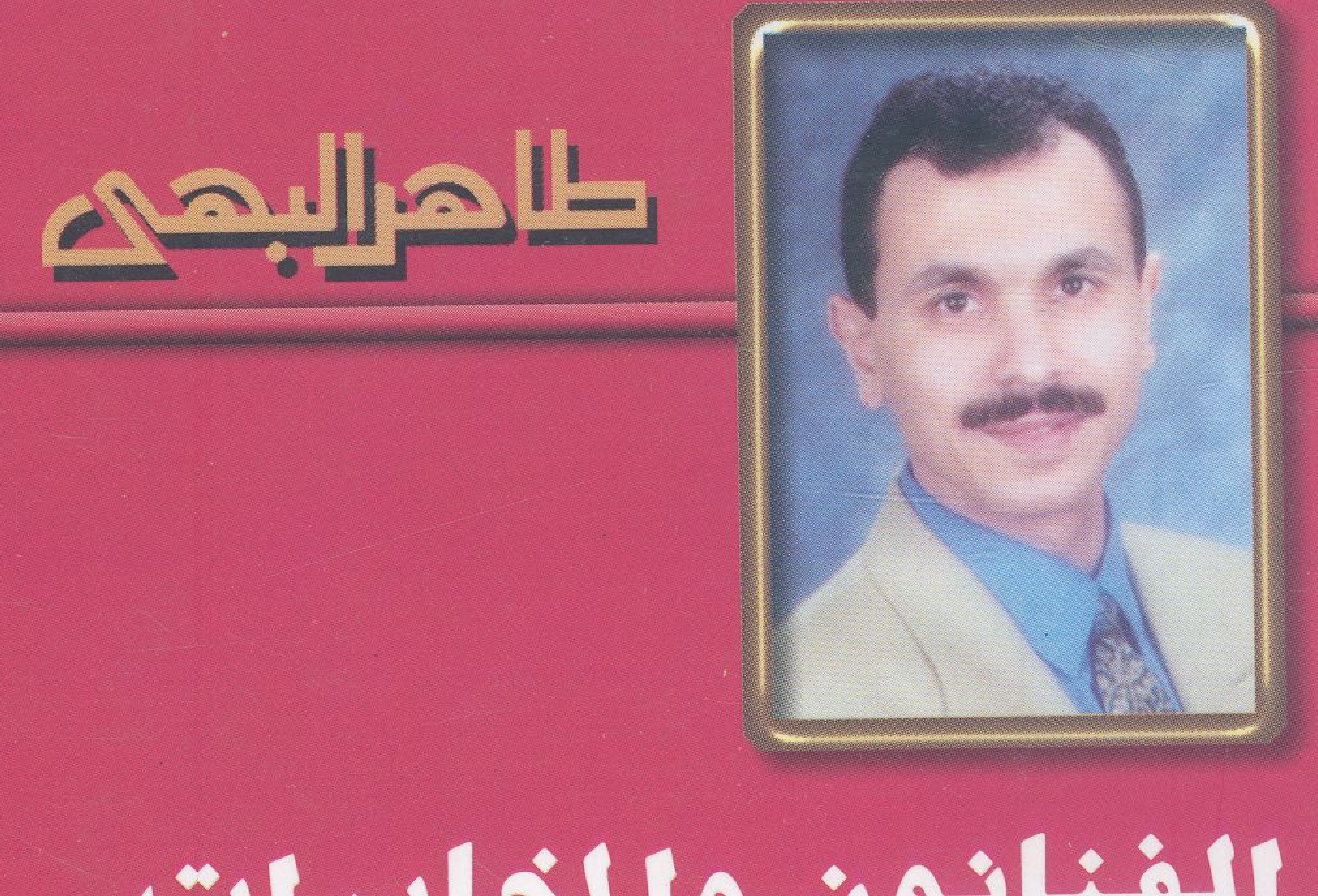
٢- موسوعة ألعاب الطفل المصري.

الفهرس

فهرس الكتاب


تلغراف
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

طاهر البهى



الفنانون والمخابرات

أصارحكم.. أننى فى أثناء بحثى للمادة الرئيسية لهذا الكتاب، كنت أتوقف طويلا قبل تحليل كل شخصية فيه.. كنت أحاول التعاطف مع كل بطل لحكاية من حكايات هذا الكتاب..

كنت أشفق على بعضهم..

نعم كان يحدث هذا. كنت أتوتر وأنا أسرد سطور كل فصل وكأننى أكتب سيناريو لفيلم سيخرجه من جديد نجم أفلام الإثارة «الفريد هتشكوك».. كان يحدث هذا وربما أكثر.

ولكن التعاطف لم يكن يأتينى فى معظم هذه الحالات.

لقد تصور بعض الفنانين أنهم يستطيعون اللعب مع الكبار.. السلطة والمخابرات - بل إن بعضهم كان أكثر تهورا فحاول اللعب مع سلطة من نوع أخطر مثل عصابات المافيا!

وهذه نجمة الإغراء اللعوب التى ظنت أنها مادامت تستطيع رفع ذيل فستانها دون خجل ليلتقط المصورون صورا تذكارية لملابسها الداخلية ظنت واهمة أنها تستطيع بنفس السهولة أن تفضح بلدا بحكامها!

وفى مصر حاول البعض اللعب مع الكبار تقليدا لنجوم هوليوود الكبار، أو محاولة للانغماس فى «لعبة» أو بحثا عن الإثارة والمتعة أو طلبا لشهرة أو نفوذ..

(والحكايات أكثر من مثيرة....